جبرا ابراهيم جبرا عبد الرحمن منيف

عالم بلا خرائط

تصوير : رياحين

إعداد الكتاب : علي مولا



عالمٌ بلا خرائط

تتداخل الأسئلة والأجوبة في هذه الرواية، بحيث يصعب القول أحياناً أيها هي الأسئلة، وأيها هي الأجوبة. وفي متابعة الجدلية القائمة في فصولها، يبقى الشك مثاراً، ومثيراً، باستمرار.

لماذا تبقى عمورية عالماً بلا خرائط؟ وعلاء الدين نجيب، هل له من طريق للخلاص من متاهاتها في اعترافاته الحارة، المضطربة، المتناقضة، عن مصرع نجوى العامري، المرأة المدهشة التي تجمع بين هوج السوالمة وشبقهم، وبين حسابات الربح والخسارة التي نشأت عليها في أسرتها ومجتمعها؟

وأين يقع ذلك كله من قصته مع ماضيه، مع أخويه صفاء وأدهم، وخاله حسام الرعد، وعمته نصرت، وأسلافه القرويين والعشائريين وصولاً إلى المتمرد الأول فيهم، حمدي سويلم؟ أم أن ذلك كله جزء من قصته الأخرى، قصته مع المستحيل والجنون، الكامنين في نجوى العامري، في نفسه هو، في عصره، في عمورية كلها؟

روائيان كبيران، جبرا إبراهيم جبرا وعبد الرحمن منيف، تضافرت مواهبهما تضافراً مذهلاً في عمل إبداعي متفرد، لإثارة جو عابق بالحيرة والسخط، بالرغب والنشوة، في خلق هذه المدينة، عمورية، التي لم يزرها قارىء يوماً من قبل، والتي بعد أن يزورها ستسكنه تهاويلها إلى وقت طويل.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية برج الكارلتون، ص.ب: ١١-٥٤٦٠
العنوان البرقي: موكيالي، هاتف [illegible]
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

الخطوط: قنوع
صمم الغلاف: نذير نبعة



إلى
لميعة وسعاد



يودّ المؤلفان أن يؤكدا أن الشخصيات والأحداث في هذه الرواية من خلق الخيال، وأن الأماكن، وبخاصة عمورية، هي من خلق الخيال أيضاً، وهما يؤكدان أنهما ليسا أول المؤلفين الروائيين الذين أوجدوا مدناً وقرى هم مالكوها الوحيدون، ولن يكونا الأخيرين.

كانت السيبيلا، عرّافة كوماي، قد أتت من الشرق، من بلاد بابل، مهد المعارف والحكمة، والتنبؤ بالمستقبل.

أُعجب بها الإله ابولو أيام شبابها، فوعدها بأن يحقق لها أي مطلب تطلبه. فأخذت حفنة من الرمل في كف يدها، وقالت: «اعطني سنيناً للحياة بقدر ما في راحتي من ذرات هذا الرمل!» ولكنها نسيت أن تطلب مع طول العمر، بقاء الشباب والعافية. فعاشت مئات السنين، وشاخت، وتقلصت عظامها. وبقيت عرّافة قرناً بعد قرن.

وعاشت لزمن طويل في كهف، كانت تكدّس في مدخله أوارق الشجر. فاذا جاءها سائل يطلب معرفتها وحكمتها، قذفت إليه حفنة من هذه الأوراق، وقد كتبت حرفاً على كل ورقة. وعلى السائل عندئذ أن يجمع الأوراق، ويرتبها في شكل ما، يستطيع أن يقرأ في حروفه جوابها...

[١]

اللذة، الألم، الرعب - إنها تعود كرؤيا شهوانية، كرؤيا محرّمة حادة، متوتر، قاهرة، فتكثّف اللذات واللوعات التي حفلت بها أعوام مضت، خلت، انقضت. اسمع موسيقى، أعضعض جسداً جميلاً، تملّخني أيدٍ شرسة، تعذبني أصوات تخرقني إلى الأعماق، وتتهاوى قصائد كالحمم المتساقطة... هل كنت التهب ولا أحترق، هل كنت أفترس ولا انتهي، هل كنت أغوص في اللّجج الهادرة ولا أغرق؟

مرة أخرى! مرة أخرى أن أرى ذلك كله، أن أعرف ذلك كله! لا، إنه خيالي اللجوج. هذا التصور الجامح الأهوج المنطلق حيث يعجز الجسد أن ينطلق بقدراته المحدودة، أو يتجاوز النطاقات المضروبة عليه. هل للزمن أن ينقلب رأساً على عقب، فتتساقط منه هذه الأعاجيب - هذه التي حلمت بها في البدء، ثم عرفتها واحدة واحدة، ثم تملصت، وهربت في منعطفات لا حدود لها؟ وإذا ما عادت الرؤيا، لم تكن ثمة حكمة أتت بها السنون، ولا حزن. لا. ما من حكمة هنا، وما الحزن إلا قسوة يفرضها المرء على نفسه، ولا يجني إلا الهباء. والندم لا أعرف له أي معنى.

إذا كان لها أن تموت، فهي قد ماتت. إذا كان لي أن أكون القاتل، فأنا كنت القاتل. إذا كان لها ان تهرب ولم تهرب، فهي لم تحاول ان تفتح الباب الذي اغلقته أنا علينا. كان كل شيء يجري، وكأنه قد خُطط له منذ زمن بعيد، وها هو الآن ينفذ. بشراسة، نعم. بحماقة، نعم. ولكن برضا أيضاً. وإذا كان لي أن اتساءل، فتساؤلي هو: كيف رضينا معاً بأمر لا يقبله المنطق؟ اللذة، الألم، الرعب. هذا ما أرادته، وما عرفته، هي أيضاً. وجعلتني أقوم بدور ربما هي التي اختطته لي أصلاً. انا لم افهمها قط منذ يوم عرفتها. كنت أتصور أنني أفهم ما تقول، وما تبغي، وما تفعل، وأنا في دخيلتي أعلم أنني أكذب على نفسي. وأكذب عليها. أو أنني لم أكذب عليها، وانما رضيت، وتمتعت، بأن اتفق مع هواها. ربما هي التي كانت تكذب على نفسها، وتكذب عليّ، دون أن تدري. أو ربما كنا كلانا صادقين ـ صادقين حتى الموت.

في زوايا الظلام أرى أضواءً تتفجر. في الغرفة المقفلة، تتسع أرضيات الغرف الوهاجة، وتترامى السجاجيد بزخارفها الفردوسية، وتنهض جدران متألقة، مزدانة بلوحات مجهولة. من أعماق الصمت يتصاعد اللغط شيئاً فشيئاً، وتمتلىء الغرف بالرجال والنساء، يدوسون الزخارف السجادية وكأنهم يراوحون بأقدامهم على أرض جنّة بعيدة. يتناقشون، ولكنهم لشدة الضوضاء، يكاد لا يسمع بعضهم بعضاً. ولا يهمهم ذلك. ومن زاوية قصيّة مظلمة، أو من خلال باب ينفتح فجأة، ينبثق وجهها ـ أراه ولا أراه، أعرف انه وجهها، ولكنني في شك منه، إلى أن يعبر بحراً من الوجوه إليّ. هل الموتى يعودون، والأطياف تتجسّد؟ «كل شيء ممكن هنا.» هذا ما تقوله. صوتها واضح، فيه تلك الغنّة الغريبة التي تثيرني.

قلت: «بالنسبة إليك، كان كل شيء ممكناً ـ دائماً.»

نظرت في عينيها البراقتين، والكحل حولهما يجعلهما باتساع السماوات السبع. أكاد أرى نبضاً في شفتيها الريانتين وهي تضحك، وتقول: «ابق على ظنك هذا!» تتلفت حولها، وتردف: «أتعرف هؤلاء

الناس كلهم؟».

اتلفت معها: «هؤلاء الناس؟ طبعاً أعرفهم. وإلا كيف ادعوهم إلى داري؟»

داري؟ هل هذه داري؟ وهم آخر، لا بأس.. أم لعلها فعلاً داري، وهؤلاء كلهم ضيوفي هذه الليلة؟ ولكنها لم تصدقني.

ـ «أنت غريب هنا، ولا تدري. ليس بين هؤلاء الناس من يعرفك. ما الذي يبقينا هنا، غريبيْن بين الأغراب؟»

كانت تلك إحدى مقولاتها، تلجأ إليها كلما أرادت أن تخرج على العادات والأعراف.

فقلت: «ولكنهم يعرفونك أنت أيضاً. باستطاعتك أن تتجاهليهم، ولكنهم لن يتجاهلوك.»

ـ أمتأكد أنت؟

ـ فلنجرب اذن.

ومدّت يدها إلى يدي. امسكت بها، وتلفتُّ حولي. لم يتنبه إلينا أحد. دنت مني، لامس نهداها صدري. فقلت: «لنخرج.» شعرت بوطأة الازدحام تشتد حولي، ويعلو الضجيج. شققت طريقاً بين الكثافة البشرية، وهي ورائي، أجرّها من يدها. كانت الردهة كبيرة، لا تنتهي. ودخان السكائر يعتّم الجو، وأنا أشق طريقي، ويدها طرية، باردة في كفي. وبلغنا ردهة أخرى، أقل ازدحاماً. ومنها اسرعنا إلى الباب، فتحته، وعبرنا الحديقة إلى الشارع. كانت السيارات تملأ جانبي الطريق. قالت: «أين سيارتك؟»

ـ إنها في الكراج. أرجو ألا يكون أحد قد أوقف سيارته في المدخل خلفها.

انعطفنا نحوها. لا، لم تكن هناك سيارة في طريقها. دخلنا السيارة شغّلتها، وسرت بها إلى الوراء حتى الشارع. وقبل أن انطلق نظرت إلى داري. الباب مغلق، ومن ورائه يترامى إلينا اللغط كالصدى.

[٢]

يتراءى لي كل شيء حلماً أو كالسراب. لم يحصل ذلك قط.. لا. لم يحصل في أي وقت. هل أريد أن اقنع نفسي؟ أن أقنع الآخرين؟ هل أكذب؟ أحلم؟ أتوهم؟ يجب أن أحصر ذهني جيداً لكي أتذكر، وإذا أردت أن أكون واثقاً فيجب أن أمتطي جواداً وأسوح في هذا العالم. أن أسأل بلا توقف. أن أدق الأبواب والجدران، لعل أحداً يستطيع أن يخبرني بما حصل أو أن يقول لي بضع كلمات لعلها تنقذني.

كانت دماؤها تسيل من ذلك العنق الشفاف. البشرة أقرب إلى البلور. لا لم تكن هناك بشرة أبداً. كنت أرى الدماء الراكضة تحت الأبط حين ترفع ذراعها. كنت أراها تتموج في الصدر حين تصعد إلى القلب وحين تغادره. أما عند الفخذين فكنت أرى الدماء والحمم. أجد نفسي مسحوراً صامتاً أول الأمر، ثم مذعوراً، وأخيراً أتحول إلى ذئب: أريد أن أوقف الدماء. أن امتصها. لماذا حصلت الأشياء بهذا الشكل؟ أية قوة مجهولة تخطط وتدفع الأمور بهذا الاتجاه؟ لا أعرف أبداً كيف حصل ذلك.

الصراع يقص رأسي كالمنجل. يحصدني. وقوة غامضة ملعونة ترفعني مرة أخرى لكي أقف أمام الشفرة الحادة. وانزف. أحس الدماء حارة لاهبة. أحس بالعطش، أنادي، يموت صوتي قبل أن يصل إلى شفتي. أبذل جهداً كبيراً وأرفع صوتي. لكن أحس بذلك الثقل. أتوسل.. أغيب عن الوعي.. أشعر بالعطش، بالانهاك. أتمنى لحظة واحدة من الهواء، من القوة، وأصرخ. أحس صوتي يصطدم بجدران سميكة، أحسه يتراجع ثقيلاً متموجاً ثم يسقط كالحجارة: «يا الهي، لماذا تريدني أن أعاني، أن أحمل صليباً لا أقوى على حمله؟» أغيب.. تشتبك الصور، تتداخل. تهتز كل الأشياء. تتراكض «يا إلهي، هل أنا خاطىء إلى هذه الدرجة؟» ويندفع رأسي في ماء طيني مالح، يملكني شهيق مجنون. ارفس، أصرخ. لكن صوتي يموت، يتراجع إليّ مالحاً نفاذاً. وحين أعب

الهواء مرة أخرى أسمع من بعيد صوتاً واحداً غامضاً: «اعترف.. يجب أن تعترف.. أنت القاتل؟».

أنا القاتل؟ أنا المقتول.. المسبي.. الملعون. كنت أبحث عن اللذة. وصلت، ثملت، جننت. وفي وقت لاحق أصبحت أبحث عن الألم. عانيت كثيراً، تألمت، صرخت من الألم واللذة معاً، أما حين كانت تنظر إليّ بتلك الطريقة فكنت أصرخ:

«يجب أن تتوقفي.. يجب أن تتوقفي وإلا...»

وتغيم كل الأشياء والأشكال. في مرات كثيرة كانت تكتفي بأن تخفّض أهدابها، أن تتشاغل بالنظر إلى الأرض أو إلى اللوحات، وعند ذاك أحس بالهبوط. أتراجع.. أما إذا نظرت بتلك الطريقة التي نظرت بها إليّ أول مرة، فيجب أن أفعل شيئاً مجنوناً. كانت تعرف كل شيء، كانت تعرف تماماً. وتحاربني. ماذا أستطيع أن أفعل إزاء هذا الجنون؟ كنت أقول لنفسي: «انس.. لا تنظر.. لا تهتم.» فجأة أجد قوة أخرى تحارب إلى جانبي، تحرّضني. كنت مسلوباً ومندفعاً. كان شيء ما ينفجر، يتمطى كشيطان، يمد لي لساناً ساخراً إذا وجدني ساكتاً، ودون انتظار انقذف كالسهم، أحارب. ولشد ما حاربت وخسرت. حتى الخسارة كانت لذيذة معها. كنت أقامر بكل شيء من أجل أن ترضى، أن تضيء عيناها. خسارتي هي الشيء الوحيد الذي كان يرضيها.. وأخسر.. وأخسر. لا، لم أخسر مرة واحدة. كنت الرابح الوحيد. كنت أربح دون توقف: يدها وهي تشتعل حول عنقي. صدرها وهو يخفق بذلك الترنيم العجيب. بشرتها البيضاء المزروعة في ذاكرتي إلى الأبد. يجب أن أتوقف عن ذلك المشوار الأرعن. أريد قليلاً من الهواء، أريد قطرة من ماء.. أريدها.. لا.. لا أريدها..

قال صادق الرحمي آخر مرة التقينا:

ـ علاء.. يجب أن تتوقف، أن تترك هذه المرأة، لان استمرارك معناه أن تدمر كل شيء.

ـ وأي ضرر إذا تدمر كل شيء؟

ـ أنت لست جاداً!

وتطلع إليّ باستغراب، وسألني:

ـ هل أنت جاد؟

ـ وماذا لو كنت جاداً؟

قلت ذلك ونهضت. اتجهت إلى النافذة. فتحتها. تنفست بعمق. ملأت صدري بهواء الليل البارد. كنت أشعر بألم في صدري وبشيء من الضيق. لم أكن أريد لصادق أن يتدخل، وإذا اعتبرت أن أحاديثنا السابقة تتيح له مثل هذا الحق فلم أكن أتصور أنه يتخذ مثل هذا الموقف. جاءني صوته بعيداً غامضاً:

ـ يجب أن تكون عاقلاً يا علاء!

واقترب مني صوته. شعرت بالحرارة وكثافة الأشياء حولي:

ـ ثم، لم يبقَ أحد إلا وعرف.

تراجعت إلى الوراء. كنت أشير بيدي لصادق أن يكف. ارتميت على مقعد بعيد ووضعت يدي على جبهتي. شعرت بألم حاد في صدري. ربما ظهرت علامات المرض أو الألم على وجهي. ظل صادق من بعيد ينظر، أحسست بذلك من الصمت، ثم من حركة الكعب وهو يدور ليقترب.. وجاءني صوته وهو يتقدم:

ـ عمورية مليئة بالنساء. كل امرأة تتمنى لو تكون لك زوجة، أو عشيقة. ألا ترضيك إلا هذه المرأة؟

ـ كفى. لا أريد أن نستمر في هذا الموضوع!

ـ ولكن أنا الذي يريد!

ـ ماذا؟

ـ أن نبحث هذا الموضوع إلى نهايته وأن نصل إلى نتيجة!

لما رآني ابتسم بسخرية، قال بانفعال:

ـ أريد لهذه المسخرة أن تنتهي!

ـ لا أسمح لك أن تتكلم بهذه الطريقة.

ـ لا أنتظر أن تسمح لي. الموضوع أكبر من ذلك، وهو يعنيني ويعني الآخرين بنفس المقدار الذي يعنيك، يجب أن تعرف ذلك وأن تتصرف على أساس ذلك.

قلت وأنا أقف وانظر إليه بحدة:

ـ اسمع يا صادق. إذا كنت قد تساهلت في الماضي وسمحت للآخرين أن يخوضوا في هذا الموضوع، فابتداء من هذه اللحظة لن أسمح لأي إنسان أن يذكره، ولو بكلمة!

شعرت بمزيد من الألم والضيق. وبدا لي وجه صادق منفّراً كريهاً، أو كأني لا أعرفه أبداً. تابعت:

ـ ثم إن هذا الموضوع خاص، خاص جداً، ولا أدري لماذا يتدخل فيه الآخرون ويريدون أن يفرضوا أنفسهم أوصياء!

ـ يمكن أن تقول هذا الكلام لإنسان غيري يا علاء.

ـ ويمكن أن أقوله لك أيضاً!

تبادلنا الأدوار الآن. جلس صادق على مقعد في نهاية الغرفة، قريباً من طاولة الكتابة. كان يبتسم بسخرية ويهز رأسه، وبين فترة وأخرى ينظر إليّ. إنها المرة الأولى، أو ربما من المرات القليلة، التي نتحدث فيها بهذه الطريقة، ونصل إلى حالة من المجابهة. أكاد أحس الآن أن كل شيء يوشك أن ينتهي. بدأت علاقتي بصادق تضايقني. لا يمكن أن أتركهم يقررون مصيري، أن أتصرف على ضوء رغباتهم وأمزجتهم، أو أن يتصرفوا نيابة عني. ثم ماذا يعنيهم أن تكون لي علاقة بنجوى أم لا؟ ماذا يعرفون عن حجمي معها؟ ألا يفاخرون بعلاقاتهم؟ إنهم حين يتحدثون عن ذلك يضعون مسافة من الوهم ويبدأون الحديث كالممثلين: يختارون الكلمات، الابتسامات، حتى الأكاذيب التي يريدون لها أن تعم، يختارونها بعناية. أما إذا أرادوا أن ينفوا خبراً أو علاقة فإنهم يفعلون ذلك ليؤكدوا الخبر أو العلاقة، فمع كلمات النفي يرسلون تلك الابتسامات والإشارات.. أو كلمات التهرب.. فقط ليؤكدوا علاقة من هذا النوع.

إنهم يفعلون ذلك بطريقة مسرحية بائسة. وبعد ذلك يرفعون أصواتهم المركومة:

«علاء.. إفعل»، «علاء.. لا تفعل»، «يجب أن تكون عاقلاً وأميناً فلا تخرب بيوت الناس ولا تستغل الثقة التي وضعوها فيك.»

قلت لصادق وقد اشتعلت نجوى في ذاكرتي:

ـ هذه آخر مرة اسمح لانسان أن يتحدث معي في هذا الموضوع.

لما نظر إليّ بتلك الطريقة صرخت من الغيظ:

ـ ثم أنا الذي اختار هذه العلاقة وأتحمّل كامل المسؤولية. لا أريد أحداً يدافع عني، أو ينصحني كأب.

ـ ولكنك بهذه الطريقة تعرّض نفسك وتعرض نجوى وخلدون، وتعرض الآخرين، لمأساة. ألا ترى كل ذلك بعينك؟

ـ قلت لك: أنا اتحمل المسؤولية.

ـ وماذا عن الآخرين؟

ـ كل إنسان يتصرف حسب قناعاته ومزاجه.

ـ ولكنك تدفع الآخرين لكي يتصرفوا بحماقة.

وتغيرت نبرة صوته وهو يضيف:

ـ ألم تلاحظ ما حصل في السهرة الأخيرة؟ بعد أن شربت كأساً توهمت أنك أصبحت وحيداً في هذا الكون، وأن كل شيء ملكك ويمكن أن تتصرف كما يحلو لك، ودون أي اعتبار للزوج، للأصدقاء، لأي انسان من الموجودين...

وعاد إلى نبرته الأولى:

ـ يجب أن تعرف إذا كان خلدون حتى الآن صامتاً متسامحاً، فليس لأنه عاجز أو لا يعرف. لقد أصبح كل شيء مكشوفاً. ليس مكشوفاً فقط. أصبح مدعاة للاستفزاز والإثارة، ويمكن أن يؤدي إلى نتائج لا يعرفها إلا الله.

ـ صادق، مثلما قلت لك، هذا الموضوع خاص.. شخصي..

أتعرف معنى شخصي؟ ولا أريد أحداً أن يقول لي كلمة واحدة فيه.

امتلأت بالجنون دفعة واحدة. كنت أريدها في تلك الساعة، كنت أشتهيها. كنت أرى بريق العينين وتلك الابتسامة التي تخض الدم. فجأة وجدت نفسي أضع السترة على كتفي دون أن ألبسها، وأقول لصادق:

ـ لم أعد احتمل.. يجب أن أخرج.

وخرجت. وظل صادق يراقب، ينظر، ولا يصدق.

[٣]

ذهبنا إلى «المجنونة». وهي التي أصرت على ذهابنا إلى «المجنونة». قالت: «ربما نذهب إليها ونعود إلى دارك، يكون ضيوفك قد انتهوا من سهرتهم.»

ـ ولعلهم حينئذ يفتقدونني؟

ـ فليفتقدوك في تلك الساعة.

ـ ويتقولون. . .

ـ وليتقوّلوا. . ما نفع الحياة إذا لم يكن فيها تقولات، إذا لم أدب على صدرك، إذا لم أشعر أن البحر من تحت الدار يحسد نفسه على سماع أصواتنا من غرفتنا الصغيرة المقفلة. . .

اللمسة من يدها تزعزعني. هذه القاسية الماكرة، العاشقة عشق المحايل. الطاهرة طهر الملائكة، الزنديقة زندقة الشياطين. تضع يدها على عيني وأنا أسوق فلا أعود سائقاً في مدينة أعرفها، بل فارساً تجمح به فرسه في غابات المجاهيل، في صحاري الجنة.

غير أن اللغط الذي ترامى إليّ من وراء باب داري بقي يطاردني. كنت أسمعهم كلهم يتحدثون، ويتضاحكون. وقطع الثلج تقرقع في كؤوسهم. ولكن من بين أصابعها الرخصة، العطرة، لا أرى إلا أشياء لا أعرفها، ولا أفهمها. وعندما انحدرنا إلى الساحل الصخري الذي تنهض عليه «المجنونة»، وخرجنا من السيارة، لم أكن واثقاً من أني أنزل معها إلى الدار التي أعرفها. حتى خشيت أن مفتاحي ـ ونحن نعبر الممر الصخري الذي تكاد تضربه أمواج المدّ، لن يفتح باب «المجنونة». ولكنه فتحه. وعندما دخلنا، أخذت نجوى المفتاح من يدي، وأغلقت الباب وراءنا، وقفلته بنفسها.

«لا! لا تفتح الضوء!» قالت، وقفزت إلى المقعد المركّب في النافذة المطلّة على البحر، ثم ركعت عليه، وقد أدارت ظهرها إليّ، وتأملت

الظلام الممتد إلى ما لا نهاية. «مسكين هذا البحر الطويل العريض. . كل مياهه لا تحوي عشر معشار الهوج الذي في دمي. . . ودمك. . . .» وقذفت بنفسها بين ذراعي، وفي لحظات، كانت عارية ـ «كالبحر، كالبحر» قلت، وأنا أتمرغ في جسدها. وقالت:

ـ لا مفرّ، لا مفرّ.

ـ نجوى، أعدنا مرة أخرى؟

ـ للمرة الأخيرة، علاء. . . لا مفرّ من موتي بين يديك. . . هيا أسرع، أخرج المسدس الذي وضعته لك في هذا المجرّ القريب.

ومدت يدها إلى المجرّ، وأخرجت المسدس. وقالت: «هنا! هنا!» وأشارت إلى عنقها الرائع، وقد رفعت عنه شعرها الطويل.

ومن على بعد أصبعين، أطلقت النار. واندهشت لحظة لشدة الصوت الذي سمعته يتردد عبر أصوات البحر.

لا، مستحيل! هذا ما كنت فعلته مرة فيما مضى. وبدفع منها هي بالذات. . . ولكن ذلك كان في سيارتها هي، عندما زعمت أنها تأخذني إلى بستانهم في الضاحية الشرقية من عمورية. دخلت بي من خلال بوابة عريضة مفتوحة، بين صفين من أشجار النخيل ـ وأذكر عثوق التمر وهي تتدلى من أعاليها، صفراء تتوهج، حين وقع عليها النور من مصابيح السيارة. كان البيت في البستان مظلماً. وعندما أردت الخروج من السيارة، أوقفتني مكاني. «نسيت المفتاح،» قالت، وضحكت. . . ومدت يدها إلى المجر الأيمن من سيارتها، وأخرجت مسدساً. وقالت: «خذ! ضعه على الأرضية عند قدميك. . .» وحسبت أول الأمر أنها تخشى المفاجأة من غريب، وعندها قد اضطر إلى اشهار المسدس.

ولكنها قالت: «لا بد من موتي بين يديك. . . في سيارتي. لن يكتشف أحد الأمر. لأيام على الأقل. . .»

ومسّحتني بأظافرها. ولن أنسى كيف أنها كررت: «هنا، هنا، هنا. . .» مشيرة إلى عنقها الطويل، السامق، الذي لو مسّته ريشة عصفور لانجرح.

وقلت: «فليكن!» وأطلقت النار. وسقط رأسها البديع الشعر، على كتفي. . . وصحت: «لعبتك المرعبة هذه، متى تنتهي؟» حسبت أن الرصاصة خلّب، تلهو بها، كجزء من ساديتها، أو ماسوكيتها.

ولكن الدم كان يدفق عليّ، وأنا لا أفهم. . . وعليّ أن أعود إلى داري، إلى ضيوفي، إلى ألف شغل ينتظرني. وخطر لي خاطر مضحك: «ماذا سيقول صادق الرعجي الآن؟ وخلدون، هل سيجن ـ أم سيقول: اف! انتهينا والحمدلله!»

لا، لم يجن خلدون. لعله كان يعلم أن الأمور لم تقع على ذلك النحو. . . كما أعلم أنا الآن. لأن المكان الذي أطلقت فيه النار على نجوى لم يكن سيارتها ولا سيارتي. أراني أداور، كأنني أخشى الحقيقة. أخشى رعبها. لأن المكان كان غرفة ـ غرفةً ما، هذا لا شك فيه. ربما كانت الغرفة تطل من طابق عال على النهر ـ أو على مسبح؟ كان ذلك ـ بدأت الوقائع تتضح لي الآن ـ في «فندق السياحة». في المطلة، حيث تعودت في الصيف الماضي أن أقضي بعض أيام الخميس والجمعة في الكتابة، متقصداً الابتعاد عن عين فجار. وعرفت نجوى بمكان «اختفائي»، ولحقت بي. . . أو، لا، أنا الذي تلفنت لها، وأخبرتها برقم الغرفة التي نزلت بها في الفندق. في ذلك المساء بالذات، كانت معي في قاعة الطعام. كنا نتعشى على مائدة في ركن من المطعم، وليس فيه إلا بضعة آخرون يعيدون عنا. كانت تغافل الآخرين، وتستغل غياب النّدل في المطبخ، وتقبلني. فتثير فيّ شهوة ضارية. ولمحنا مرة أحد الندل وشفاهنا تلتقي، ولكنه ابتسم وابتعد. وليظن ما يريد! ألا يحق «للأزواج» أن يتغازلوا في غفلة من الناس؟ واستحق مني اكرامية جيدة عند نهاية العشاء، لأنه شغل نفسه عما نحن فيه.

وكانت في تلك الليلة في غرفتي.

ـ ألم يرك أحد تدخلين عليّ؟

ـ أبداً. . . اطفىء النور، أرجوك!

ـ ولكنني أريد أن أراك بكل فتنتك، وروعتك.

أطفأت النور بنفسها. ومن قرب النافذة، كانت تنظر إلى النهر. قفلت الباب، وشهوتي القاسية تعذّبني. ورحت أنزع عنها قميصها.

ولست أدري كيف ومن أين أخرجت ذلك المسدس اللعين ـ من حقيبة يدها، ولا شك ـ ووضعته في يدي، وهي تضحك، وتلهث، وتشير إلى عنقها اللذيذ، وتقول: «هنا، هنا. . .»

لماذا أجدني أقلب الأدوار، كلما تذكرت التفاصيل؟ لماذا لا أقول، كما قلت أول مرة، إنني أنا الذي استدرجتها ـ إلى المجنونة، إلى البستان، إلى الفندق، وفي نفسي غرض مبهم، غرض لم يتضح إلا بعد أن رأيت دمها يسيل من بين نهديها، تحت أبطها، وقطرات منه تنحدر بين فخذيها. أيّ قربان، لأي إله جميل غاشم، كنت أقدم، ثم وجدتني أزعم أنني أنا القربان، وأنها هي الإله الجميل الغاشم؟ ثم. . . ألم تكن هناك امرأة أخرى؟

مهلاً. . . ثمة تفاصيل نسيتها، فتخلخل الموضوع، وتخلخلت الذكرى. فلأحاول مرة ثانية، وبدقة أكبر.

[٤]

كنت خارجاً لتوي من المرض. كان مرضاً غامضاً طويلاً لم يستطع الأطباء أن يجدوا له تعليلاً أو دواءً ناجعاً، وأكثر الناس قرباً لي كانوا يشكّون بمرضي، ويعتبرون أن ما أشكو منه مجرد أعراض تصيب ذوي الحساسية المفرطة، وينظرون إلى الآلام التي أعاني منها بنوع من الشفقة المصطنعة. فالمشكلة الأساسية، كما يقولون، هي الفراغ والبطالة.

كنت أريد أن أؤكد خطأ الشكوك والظنون التي كانت تملأ رؤوس الذين حولي، وكنت أريد أن أتجاوز حالة من الغرق لا اعرف كيف وقعت فيها.

في إحدى مراحل المرض، خاصة الشهر الأخير، حين كنت ألقي نظرة على الطاولة الصغيرة بجانب السرير وأرى عليها عدداًيتزايد كل يوم من زجاجات الدواء، ولا انفك انظر الى الساعة لكي لا يفوتني وقت تناول واحد من هذه الأدوية الكثيرة المتراكمة، وجدت نفسي ذات يوم أنهض بشكل مفاجيء فافتح النافذة وألقي منها بعصبية الأدوية كلها. ألقيت بها إلى الحديقة، وصرخت أنادي على سعيد وأطلب منه ألا يذكر أمامي الدواء أو المرض أو أي أمر يمت إليها بصلة. بدت الدهشة على وجه الرجل الذي لم يفارقني منذ وقت طويل، وكان لي مثل ظلي طوال هذه السنين، ويعتبر أن العلاقة بيننا تتجاوز القرابة والخدمة إلى نوع من الصلة الغامضة المتشابكة المليئة بالتناقض والفهم معاً. بدا الاستغراب وشيء من الاحتجاج في وجه سعيد، وكأنه لمس لديّ نوعاً من اليأس أو ربما رغبة في الانتحار. وحين أراد أن يوضح أو يحتج قلت له بحزم:

ـ منذ هذه اللحظة لن أتناول أي نوع من الدواء. لا تقل لي كلمة واحدة، كل ما أريده منك الآن هو أن تجمع الأدوية التي رميتها من النافذة، أن تجمعها وتدفنها أو تحرقها. المهم أن لا أراها مرة أخرى.

وتقدمت نحو النافذة وأشرت بعصبية:

ـ تلك هي، أحرقها، اتسمع؟

هز كتفيه دلالة التعجب وغادر الغرفة. عدت إلى سريري، وبعد قليل سمعت خطواته تحت النافذة.خيل إلَيّ اني سمعت صوته يتحدث إلى نفسه. كان يتكلم بطريقته الخاصة، إذ يكتفي بتلك الكلمات المختصرة الغامضة وبعض الأحيان بحكمة أو بيت من الشعر.

ظللت بعض الوقت اسمع حركته وهمهماته، ثم خيم الصمت. ومنذ تلك اللحظة انتابتني حالة من الصفاء لم أحس بمثلها من قبل، وسيطرت عليّ أفكار أقرب إلى الفرح والطفولة، فوجدت نفسي اتذكر اشياء بعيدة، حين كنت أتمرغ على الحشيش الناعم وأخوض في مياه النبع الصغير قرب أشجار الحور، وحين كنت أقف تحت المطر والقطرات الصغيرة تداعب وجهي وتخلق في جسدي رائحة من نوع معين. كيف بدأت هذه الحالة؟ إلى متى استمرت؟ لا أعرف، إذ ما كدت اسمع اصطفاق الباب حتى شعرت أني أعود من مكان بعيد. تركت سريري واتجهت إلى المطبخ. وقفت مستنداً إلى إطار الباب. تطلعت إلى الأشياء والأواني والجدران. بدت لي في ضوء الشمس، في ذلك اليوم الخريفي، وكأنها تضجّ بالفرح. وسعيد الذي بدا عليه الخوف وما يشبه الدهشة، وهو يراني أدخل عليه، لم يستطع أن يتفوه بكلمة واحدة، لكن وجهه، أكثر من أية مرة سابقة، كان يتكلم، ويبدو أن المفاجأة الأولى برمي الدواء، كانت لا تزال تسيطر عليه وتمنعه عن التصرف. والآن، وهو يراني أدخل، ازداد دهشة واستغراباً.

قلت وأنا اتقدم نحوه وأكشف غطاء القدر الصغير الذي كان يعدّ لي فيه طعامي الخاص كل يوم:

ـ لك أن ترمي بهذا الطعام إلى القطط والكلاب لأني منذ اليوم لن آكل منه!

رفع يديه الاثنتين باحتجاج. قلت وأنا اطفىء نار الطباخ:

ـ انا الذي أقرر ما أريد أن آكل!

صرخ بعصبية:

ـ ولكن...

ولم أترك له فرصة لكي يتابع:

ـ منذ هذه اللحظة سآكل كل شيء ممنوع... اتسمع؟

ولكي لا أترك له مجالاً سألته:

ـ ماذا حضّرت لنفسك؟

لما بدأ يعترض ويتذرع بأنه لم يعدّ لنفسه شيئاً بعد، وأنه لا يجد في نفسه الشهية، قلت لأحسم الأمر:

ـ ستذهب وتحضّر لنا سمكة، وسوف نأكلها معاً!

بعد أن خرج سعيد وعدت إلى سريري كنت منهوك القوى وأشعر برغبة التقيؤ، لأن وقتاً طويلاً انقضى على الدواء الذي تعودت أن أتناوله قبل الأكل كل يوم، في محاولة لأن أثبت معدتي في مكانها فلا تخرج من حلقي.

إنني استعيد الآن هذه التفاصيل الصغيرة كلها لأؤكد حقيقة واحدة: الألم أقوى محرك في هذه الحياة، بوسعه أن يدمر الانسان بقدر ما بوسعه أن ينقذه.

لم اكتف برمي الدواء وتحدّي الطبيب، فقد تصرفت بعد ذلك تصرفات لا تقل حماقة، خاصة من حيث الأكل والسهر، ثم أرهاق نفسي بالكتابة. هل كنت أريد أن انتحر؟ هل كنت أختبر قواي ومقدرتي على التحمل أم كنت أنتقم من شيء ما؟

سعيد رفض أن يصدق ما يراه، واعتبر تصرفاتي مجرد نزوة طارئة، أو مثل نزوات كثيرة أرتكبتها سابقاً، مطمئناً إلى أن الندم سوف يعاودني فأتراجع وأسلك سلوك الطفل المذنب في طلب الصفح. غير أنه ازداد استغراباً وخوفاً وهو يراني ازداد تطرفاً في سلوكي.

أكاد لا أصدق هذا الذي حصل، وحين استعيده الآن أشعر بنوع

من الفخر والاستغراب وما يشبه الانكار. لكن الأمور التي حصلت بعد ذلك لا تقل غرابة، إذ ما كادت الأيام الأولى تنقضي وأنا بين الحياة والموت، حتى ظن كل من يعرفني وسمع بطريقتي في مواجهة المرض، أني موشك على الموت. كنت أرى وجوه الأصدقاء والأقرباء راجية محزونة تريدني أن أتوقف عن هذا العناد لكي يتوقف الألم وأعود إلى حالة طبيعية، أو إلى حالة معقولة يمكن بعدها للدواء (للطب... للعلم) أن يفعل شيئاً. لكن كلما ازداد الحاح الأقرباء والأصدقاء، وكلما رأيت وجوههم الصفراء القلقة، ركبني جني آخر يحرضني دون توقف على التحدي، فأتحدى وأتألم وأفرح!

تلك الأيام الواقعة بين التوقف عن الدواء ومغادرة السرير، بلغت من الكثافة والتعقيد درجة يستحيل أن تعرف مثلها أيام أخرى. كانت طويلة حافلة بالألم اللذيذ، ذلك الألم الذي يصل حد الصراخ، وحافلة بساعات من الصفاء ترجعني إلى أيام الطفولة. كنت انتظر الألم بلهفة. كنت أحبه وأجد فيه جمالاً من نوع خاصّ. لم أشعر بالخوف لحظة واحدة. اتذكر أني في لحظات كثيرة كنت أصرخ بأعلى صوتي: سيأتي... سيأتي الآن. وسعيد الذي بدا مستغرباً متطيّراً لم يفهم في المرات الأولى. لعله تصور أن هواجس من نوع ما سيطرت عليّ، وكنت تحت تأثيرها اضطر إلى الصراخ بتلك الطريقة، ولعله فسّر الحالة على أنها هذيان الحمى. كان يضع يده على جبيني ليتأكد من حرارتي، ويحضّر الخرق المبلولة بالخل ويجبرني على أن أضعها على جبيني، ولكنني انتزعها بقوة وأرمي بها بعيداً. وإذا ما تأكد من عقم محاولاته وتفسيراته، خاصة وأن نوبات الألم لم يكن يرافقها ارتفاع في درجة الحرارة، راح يتراكض حائراً ملوعاً لا يعرف كيف يساعدني ويحميني، وأنا أردد بفرح تلك الكلمات حول اللذة والانتظار والاتحاد، وابتسم، وربما تصدر عني اشارات جنسية. أما اسئلته بعد تلك النوبات فكانت تتسم بمقدار كبيرمن الحيرة والمواربة. نظر في عينيّ مرّة، وقال راجياً:

ـ يجب أن تقول لي كل شيء!

وحين هززت رأسي موافقاً تابع:

- قل لي... عندما تكون في تلك الحالة، هل تتألم أو يركبك شيطان؟

ضحكت ولم أجب. اعتبر سعيد موقفي تهرباً أو أني لا أتعامل معه بأمانة. اقترب من وجهي أكثر مما تعود أن يفعل. وقال بحدة:

- حيرتني، أريد أن أفهم ماذا يحل بك؟

- ......

- لولا القيء والصراخ لقلت إنك تكذب أو تمثل، لكني رأيت كل شيء بعينيّ هاتين!

هززت رأسي مرة أخرى موافقاً فتابع بحدة:

- هل كنت تتألم؟

- نعم ولا.

- لماذا كنت تضحك؟ لماذا كنت تتكلم بتلك الطريقة الشيطانية؟

- لا أعرف!

- ولكن كيف تشعر؟ أقصد هل تتألم؟ أين؟

ولما شرحت له كيف تبدأ الآلام وكيف تتحول، ثم كيف تنتشر اللذة في جميع أنحاء جسدي، قال بحدة وسخرية:

- انت تحيرني!

- ....

- أنا لا أفهم شيئاً أبداً، أصبحت حماراً.

لقد أدركت شيئاً فشيئاً أن أموراً أخرى تحصل مع النوبات المجنونة. إذ إضافة إلى القيء، ثم اصفرار الوجه، والارتجاف، فإن حالة من الصفاء الأبيض الأخاذ تسيطر عليّ في بعض الحالات، ترتسم على وجهي، ترافقها كلمات متألقة مليئة بالشعر لا أتوقف عن ترديدها، وسعيد يفتن بما أقول ويحفظه فوراً، ويؤكد أن ما أقوله لا يقوله أرق الشعراء. إلى أن جاءت

ساعات أصبحت فيها حالة الصفاء تسيطر عليّ تماماً وتمتد لفترة طويلة، حتى ان كثيراً من الأسباب التي دفعتني إلى المرض تبدو لي الآن نتيجة المرض ذاته!

لا يمكنني أن أفسر الأشياء برؤية واضحة، فالوهم جزء من حياة كل انسان، وربما كان الوهم هو الحياة كلها بالنسبة للكثيرين. فحالة العجز التي سيطرت عليّ بعد روايتي الثانية «النوارس» جعلتني أشعر أني فقدت القدرة على الكتابة، ولن استطيع بعد ذلك كتابة أي شيء. لم يكن ما أقوله الآن مجرد وهم، إذ أن المحاولات الكثيرة التي لجأت إليها، وعشرات الصفحات التي أهملتها، تقف دليلاً لا يمكن رده أو تجاوزه على حالة العجز التي سيطرت عليّ. هل كانت تلك الحالة سبباً في المرض؟ هل كنت أعيش في حالة من الوهم الكلي؟

لكن لماذا أخلط الأمور بهذه الطريقة الماكرة وأتهرب من الحقائق؟ هل أصبحت كتابة رواية بالنسبة لي أهم من الحياة ذاتها؟ والمرض، هل يمكن أن يكون تبريراً كافياً بالنسبة لي أو بالنسبة للآخرين فأختبىء وراءه؟ لقد كان المرض، ثم فترات الصفاء، طريقاً مضيئاً شديد البياض والوضوح... أريد أن استعيد بعض الصور أو الحالات التي كانت تسيطر عليّ. أنا مدين للمرض بالشيء الكثير، ومدين أيضاً لتلك اللحظات الخصبة التي داهمتني فجأة دونما أي تفسير.

إنني استبق الأمور، أضع الحواجز، أتخطاها، أعيش حالة من الوهم اللذيذ، احلم. وأتألم، ويعود إليّ الوهم.

عندما صدرت روايتي الثانية، لم يرض عنها النقاد كثيراً، وقالوا إنها ملأى بالغموض والتناقض، وادعوا أنها لا تمثل عمورية كما يعرفونها بقدر ما تمثل محاولات مؤلفها خلق مدينة لا يمكن أن توجد في رقعه معلومة من الأرض - وكلام كثير آخر قالوه لا علاقة له بالرواية. وشعرت أن «النوارس» بقيت تحلق فوق رؤوسهم. أما أنا فقررت أن أتحدى، أن أمدّ لساني لهذا الكون، أن أقول للناس: لديّ مئة رواية... مئة أو أكثر قليلاً، وكل رواية لا علاقة لها بالأخرى. كل واحدة عالم حافل بالمتعة والخصوبة

والعجائب. إذا لم تستطيعوا أن تجدوا مكانها من عالمكم، فذلك ذنبكم... وضعت مئة عنوان. شطبت بعض العناوين. استبدلتها. غيرت في الأفكار، في البدايات والنهايات. غير أن كل شيء بالنسبة لي كان شديد الوضوح، حتى لكأني أراه بكل تفاصيله. لكن ما كدت أجلس إلى المنضدة وأبدأ الكتابة حتى انتابتني تلك الهواجس الملعونة: وجدت نفسي عاجزاً عن كتابة أي شيء... ثم سقطت مريضاً. وفي أثناء المرض، أو في الفترة التي تلته مباشرة، تغير كل شيء... وكتبت روايتي الثالثة «شجرة النار».

دعوني أحدد، رغم الصعوبة في التحديد. هل هذا نور ساطع يقضي على الرؤية، أم انه ظلام دامس على أن أتحسس الأشياء من خلاله بحواسي الأخرى؟

[٥]

أن يمتلىء الرأس بالصور، شيء، وأن يفلح القلم في رسمها شيء آخر. كان همي أن أجعل قلمي متصلاً بالحركة المضطربة أبداً في دماغي، فيضطرب قلمي ويتحطم بين يديّ. فأعيد الكرة، مرة بعد أخرى. أنا أعلم تماماً أن عالمي الداخلي، حين أحاول صبه واضحاً على الورق، يختنق في عنق زجاجة: وهو عنق رفيع، ضيق. ولعل مرضي كان نوعاً من المحاولة لكسر هذا العنق، لكسر الزجاجة: وإذا العالم الداخلي يندلق حولي، وينغل كالنمل بتفاصيله في كل اتجاه، وأعجز عن لملمته. فانطلق بما لا يفهمه سعيد، وغير سعيد. وأتصرف على نحو لا أستطيع حتى أنا تبريره، وان كنت أعرف أنه غني بمنطقه الخاص. هذا المنطق الذي ينكره عليّ الجميع. ينكره عليّ حتى صادق نفسه، وكنت أحسبه أقرب الناس إليّ.

ويوم رأيت شخصاً يقول إنه يرى المنطق الخفي في تصرفي، بل يراه واضحاً مضيئاً، غنياً عن أي تبرير ذهلت، طرت من الفرح. وخيل إليّ انني شفيت أخيراً من مرضي ولن يعاودني. وخُيّل إليّ انني عدت سويّاً، معافى، قوياً، ولي معدة عملاقة تستطيع طحن الحصى، وهضم الصخور. وكان ذلك الشخص نجوى. وحدها نجوى العامري استطاعت ان تلملم شتات عالمي - بل عوالمي، واستطاعت أن تصنع منها ما يمكن أن يُرى ويُلمس ويُذاق ويُشم. وأخذ قلمي يجري في مسارات كنت أحلم بها ولا تتحقق - ولكنها مسارات كمسارات النجوم والأفلاك البعيدة - أرسمها خطوطاً لا يفهمها إلا من كان على علم مسبق بمثل هذه المسارات المتداخلة، المتقاطعة، التي تتحدد بكتل واندفاعات وطاقات، كلما أردت استيضاحها، ازددت توغلاً في ما يشبه الرياضيات المعقدة. ووحدها نجوى كانت على علم بهذه الرياضيات.

عشية مات أبي، دعاني إليه على غير عادته. وقدم لي كأساً من

العرق. لم يكن كثير الشرب، ولكنه كان في بعض الليالي - وبخاصة في الأشهر الأخيرة من حياته - يجلس وحده في الصالون، ويشرب حتى ساعة متأخرة. بعد موت أمي، لم يبق له من يهتم هو به، رغم وجود زوجته الأخرى التي كانت سرا مفضوحا ترفض في البيت أية إشارة صريحة إليه. وعشية موته، حين دعاني إليه، ووضع الثلج في كأس العرق التي قدمها إليّ - وأنا لم أشرب، بل لم أدخن، في حضرته يوما - افصح لي عما في دخيلته. «علاء، لم يبق لي شيء أتعلق به.» قال، وهو ينظر في عيني. خشيت عليه في تلك اللحظة. كأن يداً ستختطفه من أمامي، ولا أستطيع ردها عنه. وجدته جميلاً، نبيلاً، ولكن مهدّماً. وشهقت. أردت أن أقول له: «الحياة ما زالت كلها أمامك... ما زلت تضج بالرجولة...» أو ما أشبه ذلك. ولكنني لم استطع. انقطع نَفَسي في أسفل حنجرتي. وطفرت إلى عيني دموع لم أشأ له أن يراها. ولكنه رآها. وابتسم. أخذ جرعة من كأسه وقال: «كل الذين أحببتهم راحوا... إما أنهم ماتوا، أو قُتلوا، أو غابوا في السجون. لم يبق لحياتي طعم، أو نكهة، يا علاء، سوى طعم الحزن ونكهة الألم. وأنت كبرت الآن، وما عدت بحاجة إليّ، كأخيك صفاء... وأدهم وجد ما يشغله في حياته بعيداً عنا. وأنا ما عدت بحاجة إلى الحياة... اشرب، اشرب يا حبيبي، ولو جرعتين أمامي... لا، لست يائساً. لا تظن ذلك يا علاء. ولكن ألا ترى، أنه لم يبق لي ضرورة هنا؟ انتم في غنى عني، وكل الآخرين الذين أحببتهم ماتوا، أو قتلوا، أو غابوا في السجون. وما عدت أتحمل التفكير في ذلك. وهذا العرق بات يخذلني. أشربه، ولا انتشي. ولا هو ينسيني... علاء: فلأشرب نخب صحتك، نخب مستقبلك. أردتك مهندساً - ولكنك أصبحت كاتباً يتحدث الناس عنك. ما حلمت به من أجلك تحقق، والحمدلله. واعذرني إن كنت عاجزاً عن قراءة ما تكتب.

«مات والدي ولم يخلّف لي سوى ذلك البستان الصغير، في الطلّة - أتذكره؟ ولم يعلّمني إلا قراءة القرآن - أو بالأحرى، جزءاً منه. كيف استطعت أن أهيء لكم كل هذا يا علاء؟ بأية حيلة، بأي مكر، بأي جهد عملت، وراكمت لك ولإخوتك ما أرجو أن تخلّفوه يوماً، وتخلّفوه

مضاعفاً، لأولادكم؟ ولكن اخوتك تركوني، وانخرطوا في أعمالهم، وانشغلوا بأزواجهم. وبقيت أنت والصغيرة صبوة. وأنت لست بحاجة إليّ. جد لك امرأة - اجمل امرأة في عمورية. ولا تبخل عليها بشيء، إن كنت تحبها... لماذا تتكتم عليّ بما في قلبك يا علاء؟ لا بأس، لا بأس».

امتلأت عيناه بالدموع، ورأيتها تسيل على خديه. وتناول سيكارة بيد مرتجفة وأشعلها... «لا، لم يبق لي من الحياة شيء اشتهيه، أو أتمتع به...».

وفي الصباح التالي وجدته ميتاً في فراشه، وعلى شفتيه ابتسامة عجيبة، ودهشت لقوة ملامح وجهه، وقد عاد إليها شباب أصبح غير وارد، ووسامة سيواريها التراب. أية عشية كانت تلك من الطبيعة؟ من الزمن؟ من الموت؟

ندّت مني صرخة حبيسة، ثم صرخة أخرى. وقبل أن ينتبه أهل البيت إلى الذي جرى، أغلقت الباب، ونوافذ الغرفة، وصرخت. صرخت عالياً، ووقعت على الأرض، وأنا ألهث. لقد شعرت كأن أحداً أحبه وأوليته كل ثقتي قد خانني. كأن الحياة نفسها قد غرّرت بي، ثم ركلتني حيث أشد الألم... وصممت في تلك اللحظة على أن اكتب عن ذلك كله. يجب أن أغوص في مياه الحب والألم والموت - لعلني أفهم.

ولكن ماذا أكتب؟ وعمن اكتب؟ في أعماقي هاويات لا أعرف طريقي بينها، ولا أعرف كيف أطلّ عليها، أو أتأمل فيها. فلأحاول، فلأجازف. ساعة رحل أبي، غدوت علاء جديداً. ومنذ تلك الساعة، حين ادركت انني قد قذف بي في فضاء فسيح مجهول، فضاء تلتهب فيه النجوم وتتساقط الشهب، أحسست بحرية لعينة في جسدي، وفي عقلي، معاً. وكان يكفي أن ألقي نظرة على أية جريدة أو مجلة في اليوم التالي، لأدرك، بشأن الحرية، انني انما اخدع نفسي - أخدعها عن وعي، فلا بد لنفسي الآن من أن تتعلم كيف تجد الثغرات في الأسوار، كيف تكتشف المتسربات الجوفية - للنفاذ أفقياً، وعمودياً، وفي كل اتجاه، إلى الأجواء التي تتحمل حريتي. رفضت أن أكرر تجربة أبي. رفضت أن أسعى كالثور

كل يوم من الصبح حتى العشية، لأنتهي على قمة من الأرصدة المصرفية، أعلن من فوقها: «لم يبق لي من الحياة شيء اشتهيه، أو اتمتع به.» سأشتهي. سأتمتع. سأتألم. سأفعل كل شيء. وسأكتب، كل شيء.

لم تأت الأمور متصاعدة، أو بيسر. ولا سيما الكتابة. وكلما كتبت شيئاً، أدركت فيما بعد أنني لم أقل شيئاً. إذا أحببت امرأة، فأنا في مجابهة جسدية ونفسية حقيقية، استنفر فيها كل قدراتي على الملاحقة، واللذة، والاخلاص، واللامبالاة. وكلما توثقت علاقتي بالآخرين، فأنا أيضاً في غمرة حقيقية من التماس والتضاد، من الحب والكراهية. وكلما قمت بعمل، فأنا أتداخل في الأشياء وتتداخل هي بي على نحو أرى خطوطه الداخلية والخارجية بوضوح. ولكن كلما كتبت، وجدت أن الكلمات، رغم ارادتي، انما تتبع هواها الخاص، وتتركب في أنماطها الخاصة، لتقيم في النهاية انساقاً من المراوغة، من التضبيب والتعتيم. لا تجاه الآخرين فحسب بل - وهو الأمض - تجاه نفسي. لماذا، لماذا، أرى الكلمات دوما تجعل من نفسها قناعاً، بل أقنعة؟ لماذا ينبغي عليّ أن أرضى بحوار يقوم بين مقنّعين، كأنما السعي نحو الجهر الحقيقي أمر مستحيل، كأنما كل كلام أكتبه هو جزء من مسرحية رديئة التأليف، رديئة الإخراج، رديئة الايصال؟ وأخذت أشعر فيما بعد أن الكلمات تلعب هذه اللعبة معي لا في الكتابة فقط - بل في التخاطب مع الناس أيضاً... ما هذا الرعب؟ هل أنا شبح بين أشباح؟ لعل علاقاتي مع الآخرين، التي كنت أتصورها حقيقية، ومتصلة بجذور وجودي الانساني، ليست إلا علاقات بين ممثلين: على المسرح يعشقون ويتخاصمون ويتقاتلون، وحالما يسدل الستار يذهب كل في شأنه، كلهم منفصل، وسائر وحده في درب موحش. هل كنت في بحث دائم عن انسان حقيقي، فاضلاً كان أم غير فاضل؟ ولأبدأ بنفسي. هل أنا انسان حقيقي؟ ألست ربما من خلق كاتب روائي قرأته يوماً ونسيته، ولكنه في أثناء ذلك صنعني كما يريد، وتركني شخصاً وهمياً يحاول جاهداً، يائساً، مصارعاً، أن يجسّد نفسه، أن يحقق هويّته، أن يقف على قارعة طريق مزدحم بالبشر، ليقذف عنه بكل ما عليه من ثياب، ويرفع صوته فيهم قائلاً: «انظروا! ها أنا عارٍ كما خلقني ربي، لا كما خلقني

روائي ماكر. وهذا جسدي، تعالوا المسوه بأيديكم لتصدقوا أنني حقيقي. حقيقي كهذا الجدار الذي اتكىء عليه...».

[٦]

كنت الأوسط بين أخويّ الاثنين. ظللتُ فترة طويلة أرفض الذهاب إلى المدرسة، وحين اضطررت إلى ذلك أخذت صحتي تعتل وبدأت أعاني من أمراض غامضة حار بها الأطباء وأصحاب العطارة وكتّاب التعاويذ، إذ ما أكاد أتعرض لحالة من حالات البرد أو ارتفاع الحرارة حتى أسقط وأضطر إلى ملازمة الفراش أياماً طويلة. وعندها تبدأ مجموعة من الأدوية والمقويات والنباتات والحجب تتراكم في البيت، وتبدأ أمي ممارسة الهوايات التي تحبها كثيراً: التمريض والحزن! فاذا جاء وقت الدواء وتمنّعت أو ترددت بدأت أمي، ثم بعد ذلك عمتي، بأساليب لا حصر لها باقناعي: أنواع من السكاكر، حبات من الفاكهة النادرة، وأخيراً القصص. كانت القصص وحدها هي التي تحملني على التسليم والموافقة، فتجلس أمي الساعات الطويلة على طرف السرير تحكي لي القصص. لا أزال أتذكر الكثير من تفاصيلها، اتذكر الكلمات ذاتها وكيف كانت تقولها، واتذكر أيضاً ألوان الأشياء حولي وملامحها حتى لأحسب انني قادر على استعادتها الآن.

ما تكاد أيام المرض تنتهي وتتأكد أمي أني أصبحت قادراً على الذهاب إلى المدرسة من جديد، حتى أبدأ بخلق عشرات المشاكل والأسباب لكي انقطع مرة أخرى، ولا تنتهي هذه الحالة إلا باتفاق واضح: أن تروي لي حكايات وقصصاً جديدة، ولا أقل من واحدة ترويها أثناء تناول طعام الفطور، وإذا وافقت على التأجيل كنت اتقاضى مقابله مضاعفاً وحتى أنام!

هذه الصورة البعيدة، والتي طالما تكررت بأشكال مختلفة، هي التي شكلت نمط الحياة التي عشتها في ذلك البيت الذي كان مفعماً بالغموض والخوف والانتظار، وكانت تُروى فيه أشياء كثيرة بهمس، بعد أن ينام الأطفال. لكن حدثاً وقع ذات يوم غيّر حياتي كلها، فقد اصرّ أبي وهو

يخرج ليغيب عنا فترة طويلة، أصرّ على أن يأخذ معه النركيلة العجمية المطعمة بالذهب، وهي النركيلة السلطانية كما كان يسميها، والتي يروق له أن يستعملها حين يكون في حالة خاصة، حين «يسلطن».

كان أبي صاحب كيف، كما يطلق على نفسه، وكان يعتبر أن من حقه أن يعيش ويتمتع بعد الركض والتعب، وحتى فترة متأخرة ظل يردد بسخرية: «ما معنى أن يجمع الانسان الثروة إذا كان لا يتمتع بها؟ هل أنا قراءة خضرة أم حفار قبور؟» ولم يكن ينتظر جواباً، كان يتابع كأنه يخاطب نفسه: «حتى حفار القبور، بعد أن ينفض عن يديه وثيابه التراب ورائحة الموتى يلتفت إلى نعم الحياة، إلى ما خلق الله، يلتفت إلى الأكل والشراب...» ولا يكتفي بذلك، كان يحبّ أن يقول كلمة أخيرة، فإن كانت أمي أو إحدى اخواتي حاضرة كان يضيف: «نعم الحياة»، أما إذا لم يكنّ حاضرات فيتعمد أن يقول كلمة بالذات: «النساء». كان يقولها أمام أبنائه الذكور ويغمز بعينيه! وأمي التي تعرف كلمته تقول بصوت عال وكأنها تخاطب نفسها: «المال ورفقة السوء ونساء المدينة تخرّب بيوت الناس، وهي تخرّب الصبي، حتى في بطن أمه، قبل أن يولد، فكيف بهذا الابليس؟»

كانت أمي تفعل ذلك في وقت مبكر، وتضيف بحزن: «يوم كان فقيراً كانت كلمة الله لا تقع من فمه، كان يحب بيته وأهله، لكن بعد أن أعطاه الله صار زنديقاً، صار يشرب ويكفر ويهرب من البيت لا أدري إلى أين!»

بهذه الطريقة، ومن حيث لا أشعر اكتشفت خيطاً من الشك والخوف، لا أتذكر كيف أو متى، لكن حين أصر أبي على أخذ النركيلة السلطانية، وقد حصل الأمر في جو عاصف مليء بالتحدي والدموع، التحدي من أبي والدموع من أمي، وادعت، أول الأمر، أنها لا تعرف مكانها، ثم لما رأت إصراره، قالت بنوع من التسليم:

ـ يمكن أن تأخذ كل شيء، ونحن لنا الله ولن نموت.

وبعد أن سقطت من عينيها دموع غزيرة قالت بيأس:

ـ خذها... خذها. إنها هناك

وأشارت إلى بيت المؤونة. فلما اتجه إلى هناك، وكان مملوءاً بشعور الظفر، قالت تخاطب نفسها:

ـ ستخرب بيتك بيدك!

عندما عاد أبي بالنركيلة، وبدا قوياً متجبراً، وقد دخلت عمتي في تلك اللحظة، هدر صوت أمي مليئاً بالغيظ والكراهية:

ـ جهل الشيب عيب!

أحس أبي بالاهانة، تملكه الغضب، وربما لوجود عمتي أو لوجودي، صرخ في وجهي بانفعال:

ـ اذهب من وجهي!

لما خرجت حزيناً مندهشاً، سمعته يقول بلهجة أقرب إلى التوضيح، وربما كان يخاطب عمتي:

ـ مجنون من يتصور أن النركيلة تمسك رجلاً!

وبعد ذلك اختلط الجو تماماً، لكن صوت عمتي كان أقوى الأصوات وأوضحها، ومع ذلك لم تتغير المواقف، فأبي حمل نركيلته وعباءته وبعض الحاجات الأخرى وترك البيت إلى المزرعة، وغاب فترة طويلة. وأمي كان يجب أن تبكي لهذا السبب أو لأسباب غيره، كما هي العادة في أغلب الأحيان، وعمتي لا بد أن تتولى التوضيح والتهدئة!

هذه القصة التي أرويها الآن وقعت، أو وقع شيء قريب منها، لأن أبي ضحك كثيراً حين رويتها له في وقت متأخر، وكنا نتحدث عن تدين امي الزائد وأغراقها في تلك الطرق الصوفية التي كانت تصرفها عن كل ما حولها، وتجعلها العوبة بأيدي الدجالين والمشعوذين. قال لي أن زواجه من العجمية قد تم بعد ذلك بسنين من هذه الحادثة، وأن رغبته في ذلك الوقت في أخذ النركيلة السلطانية لم تكن سوى رغبة رجل غني في أن يظهر بين أصدقائه بشكل متفوق، وأنه في نطاق البحث عن المتع كان يروق له أن

يدخّن بهذه النركيلة بالذات. وأمّي تؤكد العكس تماماً. أما عمتي التي تعرف كل شيء عن الماضي ولا تقول إلا القليل، فقد قالت كلاماً من نوع آخر:

ـ كان أبوك يحب أمك، لكن أهلها زوجوها لرجل آخر، وكان ذلك الرجل تاجراً غنياً، غير أنها لم تستطع البقاء معه أكثر من ستة أشهر، اضطر بعدها لأن يطلقها. وبعد مشاكل وتعقيدات تزوجت أباك. قاطعت أهلها وحاربتهم. كان أبوك فقيراً، لكن قوياً، ولما فتح الله عليه، بدل أن يشكر الله ويجازي أمك على التعب والفقر والعذاب بدأ... وأنت تعرف الباقي!

لم تكن النركيلة السلطانية اذن السبب الحقيقي في تلك العاصفة التي ألمّت بدارنا في ذلك الوقت المبكر. حتى زواج أبي، الذي ظل سرياً طوال سنة ونصف، ثم انكشف أمره بعد ذلك، جاراً معه الكثير من المنغصات لم يكن السبب الوحيد في الشرخ الذي أصاب حياتنا وجعلنا دائماً خائفين وننتظر شيئاً ما. فعمتي كانت أيضاً سبباً بل وطرفاً في كثير من المشكلات التي حصلت فيما بعد، وإليها يمكن أن يعزى ذلك الجو الذي سيطر على حياتنا وجعلنا باستمرار شديدي التنبّه والحذر، أو بالأحرى جعلني أنا وحدي كذلك. لأن أخويّ واخواتي كانت لهم هموم وطريقة في الحياة تختلف عني كثيراً، وكانوا يقابلون، بعدم اهتمام، الصمت وحتى المرض الذي يسيطر عليّ حين أرى عمتي تمسك أمي وتهمس بأذنها شيئاً، تجهش أمي بعده بالبكاء.

الآن وقد انقضت سنوات طويلة منذ ذلك الوقت، أشعر أني لم أصبح مثل الآخرين. صحيح أني ذهبت إلى المدرسة مثل الآخرين، وحاولت أن أكون مثلهم في الحياة والسلوك، ولكنني أخفقت. الاخفاق ظلّ آخر يلاحقني منذ اللحظة الأولى لولادتي. تقول عمتي أنها ظنتني ميتاً حين انقذفتُ من رحم أمي، فقد ظللت للحظات صامتاً، فلما ضربتني على خدّي بقوة صرخت وبدأت أعبّ الهواء، لكن أثر الضربة ظل باقياً ورافقه نوع من العناد لا يطيقه الآخرون. ولذلك دبّ بيني وبين العالم

سوء تفاهم منذ وقت مبكر. لم أقصد ذلك ولم أخطط له. لكنه بدأ يتكون لا شعورياً، ولم أفطن لذلك إلا في وقت متأخر، واكتشفت أيضاً، بالصدفة، بعد أن ساءت علاقتي بالكثيرين، نتيجة كلمات قلتها أو تصرفات اضطررت إليها، بسبب أخطائهم وأكاذيبهم، أن رد فعلي تجاه ذلك يختلف عنهم.

لم يقتصر الأمر على ذلك. فقد كنت منذ الصغر، شديد الحساسية تجاه الظلم والقسوة، أياً كانت أسبابها ومن أي مصدر جاءا، وهذه الحساسية كانت تظهر في الاحتجاج والمقاطعة. وفي وقت لاحق محاولة منع ذلك. فلما عجزت أصبحت عصبي المزاج سريع الإثارة، وأي تصرف خاطىء قد يخرجني عن طوري ويجعلني إنساناً غير محتمل. كانوا يقولون إن الحياة ستعلمني، وأن المثالية التي تملأ رأسي لا بد أن تتراجع وتتلاشى ليمتلىء الرأس، بعد ذلك، بالأمور الواقعية، أو التي يمكن أن يقبلها المجتمع ويرضى عنها الآخرون. لكن شيئاً من هذا لم يحصل!

أضع الآن مسافة بيني وبين نفسي لكي أتحدث عن ذلك الكائن الآخر، والذي يخلق لي الكثير من المتاعب والهموم، بحياد. هل أتوهم؟ يجب أن أكون صادقاً وأقول إن ذلك البيت، على الرابية التي تطل على عمورية، وفي تلك الفترة بالذات، هو الذي أفسد حياتي، أو بكلمات أخرى هو الذي جعل لحياتي ذلك الطعم. فحزن أمي، ثم تلك الهلوسة التي تاهت فيها، وأخيراً النهاية التي انتهت إليها، تلاحقني حتى اليوم. وأبي الذي كان منذ البداية، وظل حتى الليلة الأخيرة، يتصور أن الحياة هي ما يمكن أن يفعله الانسان على هذه الأرض، وأن لا مكان آخر للانسان، ولذلك يجب عليه، في هذه الحياة، أن يعيش، أن يأكل ويتمتع ويغني ويبكي، وعليه أن يكون واقعياً لدرجة يرفض عندها الذهاب إلى مجالس الفاتحة أو زيارة القبور، وان يكون عاقلاً بحيث يتأكد أنه إذا انتهى هنا ينتهي إلى الأبد... هذا الشعور الواقعي الحاد بالأشياء، ورفضه للفلسفة التي تتحدث عنها أمي. ثم عمتي وما امتلأت به من هوس بالماضي البعيد، وما امتلأت به من روح قاسية أقرب إلى روح البشر

الضائعين الذين يمكن أن يفعلوا أي شيء دون أن يعرفوا لماذا، وما يحيط ذلك من التكتم والمداورة. كل تلك الأمور تظل مثل رقاص الساعة في حركة دائمة وتداخل لا يعرف التعب، تظل تلاحقني وتضغط عليّ حتى أصبح مسلوب الارادة، ضائعاً، فاقداً لكل رغبة أو حافز.

صحيح أن الأمر لم يحصل فجأة ولم يحصل بهذا الشكل الذي أرويه الآن، لكنه بدا مثل غيمة بعيدة، بدا مثل شبكة صياد ذكي وحريص. يوماً بعد آخر، حادثة بعد أخرى. أخذت الأمور هذا الشكل الذي يشبه الحصار.

لقد وقعت في الشبكة، وقفت تحت الغيمة المنهمرة، تلقيت الضربات، سمعت الصرخات المرعبة، رأيت حالات الجنون، رأيت القتل، رأيت الأنذال وهم يتجبرون ويثرون، حصل كل ذلك أمامي. رأيت كل ذلك. صرخت، أشرت بأصبعي، قلت إن النذالة والضمائر الميتة لا تنتصر، لكن كل شيء مرّ بصلابة البغايا وجبروت القتلة، وانتصب قانوناً أسود يقص ويقتل ويمنح الأوسمة. أصبت بالتعاسة والأرق، وانتابتني الآلام القاسية ثم المرض، ثم اكتسبت حالة من الحزن والشك لا تفارقني. كنت ولا أزال أرى العالم مقلوباً، واقفاً على رأسه. وكنت لا أزال أرى الصورة وظلها، حتى أني ما رأيت فرحاً إلا ورأيت إلى جانبه جثة لم تجد من يدفنها!

اتذكر صادق مرة، وكنا لا نزال ندرس في مانشستر، قال لي بطريقة قاسية، وكنا نستضيف في شقتنا الصغيرة فتاتين من النمسا، ونحاول، أو بالأحرى كان صادق يحاول، اقناعهما بالبقاء وقضاء الليلة معنا. في تلك اللحظات كنت احترق من الشهوة والرغبة والشعور بعدم الجدوى. قال لي صادق:

ـ يجب أن تنتزع عن وجهك القشرة الفلسفية البائسة، لأنك إذا ظللت هكذا فسوف يهرب منك حتى ظلك. تكلم، اضحك، افعل شيئاً لكي يصبح الجو مشجعاً، وتبقى هاتان الغزالتان!

كنت في أعماقي أريدهما، أريد الاثنتين معاً، وكنت أريدهما أن

تضحكا، أن ترقصا، أن تشتعلا، وفي نفس الوقت كنت مليئاً بالتعاسة وعدم الرغبة!

وفي صباح اليوم التالي، قال صادق وهو يرى تلك الغزالة الشقراء ترفع العباءة التي أضعها على كتفي وتندس تحتها بطريقة ماكرة وشديدة الإغراء:

ـ ألم يكف الصراخ؟ ألم يكف الشخير والنخير طوال الليل حتى تستفزنا الآن؟

قلت استفزه:

ـ أنت ترى، لا أزال أضع على وجهي تلك القشرة الفلسفية البائسة ولم أتفوه بكلمة!

رد بسخرية:

ـ أنت تعرف كيف تجعل الآخرين يحلمون، ولذلك فهذه القطة تحلم الآن!

هربت فتاة صادق بعد تلك الليلة، وحتى عندما اضطرت للعودة مع هيلدا، كانت تحرص على سلوك لا يشجعه على الاقتراب منها. ومثلما هربت فتاة صادق فعلت أنا الكثير من أجل أن أهرب من هيلدا. حتى هذه اللحظة لا أعرف لماذا، لكني فعلت بتصميم أحمق، رغم أني كنت أحترق لها شوقاً وانتظرها بلهفة لا تحد، ورغم أنها فعلت الكثير من أجلي، وبكت وانتظرت. هل كنت أشعر بخطيئة من نوع ما زرعتها في اللاوعي مني قصص أمي وهي ترويها وتريدها أن تكون لنا عظة؟ وعمتي، أية مسؤولية وأي خطأ خلفتهما في نفسي وهي تروي تلك الأساطير عن السوالمة الأوائل؟ وأبي أية مسؤولية يتحمل حين خلفني على هذه الشاكلة؟

كنت أحار في تفسير أي الرجال أكون، إذ بمقدار ما أملك من أمي أملك من أبي ومن السوالمة الأوائل... وربما من أشخاص آخرين مجهولين!

تختلط الأمور في رأسي لدرجة لا أعرف عندها ماذا أريد أو ماذا

أقول. كنت أريد أن أتحدث عن أيام طفولتي، عن أيام قديمة، ليس لأن في هذه الطفولة أو تلك الأيام شيئاً خارقاً يستحق أن يروى، وإنما لأن وضوحها الحاد، والوقائع الكثيرة التي حصلت خلالها، جعلتها تبدو لي عملاً روائياً كاملاً، بل جميلاً مؤثراً. هذه القناعة هي التي ملأتني خلال فترة طويلة. ولأن الأمر بهذا الوضوح، ولأني استعدت الوقائع مرات ومرات، وأتعبت ذهني بترتيبها، ثم أدخلت عليها مقداراً من التمويه، لكي لا تبدو صور الأشخاص، خاصة الأحياء منهم، واضحة ومعروفة، بعد أن فعلت ذلك، وكنت متأكداً أن الأمر لا يتطلب سوى أن أجلس إلى منضدتي لكي أشرع بالكتابة، وخلال أسابيع قليلة سيكون لدّي رواية كبيرة تعج بالتفاصيل المهمة والكائنات الحية وأخيراً المغزى الكبير. لم استطع أن أقول شيئاً حقيقياً واحداً مما في نفسي.

ما كدت اشتري مستلزمات العمل، وهي كميات كبيرة من الأوراق الصقيلة، وعدد من أقلام الحبر الجاف، وأجلس وراء المنضدة التي جعلتها بمواجهة الشباك العريض، لكي أرى من خلاله الأشجار وزرقة السماء، حتى داهمني العجز. كتبت عشرات الأوراق، ومزقت عشرات الأوراق. بدأت عشرات البدايات لكن أياً منها لم ترضني. اعتبرت العجز حالة طارئة متعلقة بالمزاج أو بالنوم القلق لليلة السابقة. اعتبرت الجو، خاصة في هذه الفترة من السنة، عاملاً سلبياً، ولا بد أن تتغير الأمور حالما يميل الطقس إلى البرودة، لكن البرد القاسي أصبح سبباً حقيقياً يمنعني من الجلوس وراء الطاولة ومحاولة الكتابة.

لا أريد أن استعيد الآن كل ما فعلته، لأن جزءاً كبيراً مما فعلت أقرب إلى تصرفات المجانين. فالساعات الطويلة التي قضيتها في الشوارع، هائماً على وجهي، غائباً عن الاحساس بضجة البشر وصراخ الباعة والأطفال، غير عابىء بالتعب أو الجوع، كانت هذه المشاوير تولد في نفسي الاضطراب والخوف بدل أن توحي ببداية من نوع أرضى عنه. أما محاولاتي في تحبير بدايات شائقة بقراءة بعض الروايات التي طالعتها في فترات سابقة، فلم تكن إلا لتزيدني عجزاً وتجعل الأمر أكثر صعوبة

إذا كانت تلك الأشياء التي مرت عليّ وكوّنت حياتي الماضية تبدو عند الكتابة بمثل هذه الصعوبة، فكيف إذا أردت أن أقيم عالماً من الوهم والخيال؟ كيف استطيع أن اخترع بشراً وأحداثاً، وأن اعطي هؤلاء البشر أسماء وملامح، وأجعلهم يتكلمون ويفكرون ويحلمون، وأن أجعل الأحداث تعني موقفاً وتقدم فكرة؟

آه لشدّ ما ارتسمت في خيالي الحياة الماضية بتألقها، بجبروتها، بعصائبها، وكنت أنظر إلى نفسي بنوع من الزهو لأنني عشت كل ذلك، ولأنني عشت كل ذلك فليس أسهل من أن أقبض على القلم كما أقبض على سكين وأشرع في كتابة واحدة من أخطر الروايات وأعظمها.

لقد كانت اللعبة من السهولة بحيث لا تتطلب سوى أن ابدأ. لكن مع كل بداية، مع كل بضعة حروف سوداء، تنشقّ أمامي هوة تزداد اتساعاً ما دمت أحصر نفسي وأجبرها على الكتابة.

لعل ذلك كله لم يكن إلا نوعاً من الهلوسة أو خداع النفس، أو لعلني الآن ما زلت فريسة الهلوسة وخداع النفس، لأن أموراً كثيرة حصلت بشكل مختلف تماماً، وما حاولت قوله لا يعدو مجرد كونه بداية لرواية من نوع ما، أما الحقيقة فقد حصلت بشكل مختلف. دعوني أروي ما حصل، لأن هذا الذي حصل لا يحتاج إلى خيال روائي أو أوهام شاعر. لقد كان شديد الوضوح. رأيت جميع التفاصيل بدقة. لم أر فقط التفاصيل، بل كان لي دور فيها، وربما الدور الرئيسي، واكتشفت وعشت وعرفت. اكتشفت هذه الفتنة التي يسمونها الحياة، عشت اللذة والألم والرعب، وعرفت الكثير. لكن عن أي شيء أتحدث الآن؟ عن الحياة؟ لا، تمويه آخر أريد أن أوقعكم فيه. ما قصدت أن أحدثكم عنه هو نجوى. نجوى هي الماضي، وهي الحاضر، ولقلت أيضاً هي المستقبل لو كان لي بعد مستقبل.

ولتغفر لي مباذة هذا الكلام إلى الأبد!

[٧]

صفاء وأدهم: هذان هما أخواي، وأنا الأوسط بينهما. وأما سليم، توأم صفاء، فقد مات في طفولته قبل أن أولد. ثم هناك أخواتي الثلاث، ولا حاجة بي إلى ذكرهن. أو فلأذكرهن، لأتأكد من أن ذاكرتي، التي تبدو مشوشة في أمور كثيرة، ما زالت على سلامتها، بخصوص أفراد عائلتي على الأقل. لي أختان تكبرانا، هما عدويّة وماجدة، كلتاهما متزوجة، وذات أولاد. وأختي الصغرى، خاتمة العنقود، هي التي جاءت وأبي قد تخطّى الخمسين، وعلى غير توقع من أبي وأمي، فيما يبدو، فسمياها في ساعة من التجلي، صبوة. لقد تعلقت بها أكثر من تعلقي بأي من أخوتي كلهم، وأنا أكبرها بحوالي عشر سنوات. ولكنني لم أحب اسمها كثيراً، فجعلت أدعوها بـ «صبا». فقد وجدتها طرية، ناعمة، سريعة الحركة، كريح الصبا. وعندما كبرت، شاء لها الله، كعادته في خواتم العناقيد، أن يجعلها أجمل من في العائلة، وربما أذكاهم قاطبة.

إذن، هؤلاء نحن، أو كنا: أبي نجيب سليم السلّوم، وأمي فاطمة جاسم الرعد، وعمتي نصرت، ثم: عدويّة وماجدة، وصفاء وأنا وأدهم، وصبوة ـ التي سأسميها من الآن فصاعداً بـ «صبا».

لم يخف علينا، عندما كبرت قليلاً، أن عمتي على حبنا لها، وحبها لنا، كانت بالنسبة إلى أمي مشكلة خاصة. يبدو أنها هي التي ساعدت أبي أول الأمر في الزواج من أمي: كان فيها ضرب من التطلع الاجتماعي إلى ما تحسبه هي «أعلى» منها، ولما علمت أن بإمكان أبي أن يصاهر من هم أغنى منه، وأوسع نفوذاً، جعلت من نفسها الصلة بينه وبين فاطمة الرعد. وكان ذلك قبل أن يموت زوج عمتي في ظروف «غامضة» لم تكن تسهب فيها قط. وأنا لا أشك قطعاً أنها كانت فيما بعد سعيدة بموته، أو أنها على الأقل، لم تحزن كثيراً لفقدانه، مؤمّلة في زواج ثان من أحد أقارب فاطمة الرعد. ولكن «النذل» خذلها وبقيت في دار أبي تنتظر، عبثاً.

وبقدر ما كانت عمتي تظهر لأمي الحب، وقد كان في السنوات الأوائل حباً حقيقياً يمازجه إعجاب كثير، فإنها عندما كبرت أنا، وبدأت الحظ أشياء لا أفهمها بوضوح ولكنها تلفت نظري، تحول حبها إلى حسد وغيرة، ثم إلى كراهية خفية تطل برأسها القبيح في لحظات معينة، ولا سيما في غياب أمي. لم تكن تستطيع في البداية مجابهة أمي بشيء: صيحة واحدة من أم صفاء كانت كفيلة بأن تسكت العمة نصرت يوماً كاملاً. فلم يكن لها حينئذ إلا أن تلجأ إلى أساليبها التآمرية الصغيرة. لم يكن كافياً لها أن توغر صدور الأولاد على أمهم إذا استطاعت، ولو بشكل غير مباشر. فنجاحها الحقيقي كان لا بد له أن يتحقق، إذا تحقق أبداً، في منطقة الجنس الأشد ظلاماً. لقد كان نجاحها يدفع أبي في اتجاه لم يكن قد خطر له في البداية: دفعته إلى إهمال أمي بشكل أو بآخر، وإذا استطاعت أن تزوّجه من امرأة أخرى، فإنها لن تحجم عن ذلك ـ ولو أنها كانت تقسم أغلظ الأيمان في النكران حين تجابهها أمي بتلك التهمة، وتستعيذ بالله من شرّ ذلك. ولست أدري إن كانت أمي تعلم فعلاً بأن «المرأة الأخرى»، تلك «العجمية» التي تزوجها أبي سراً، كانت عمتي هي التي شجعته عليها. التركيبة والمرأة الأخرى ـ كانتا كلتاهما من خلق عمتي، تمتع نفسها عن طريقهما بتعذيب امرأة تنتمي إلى أسرة ربما كانت فيما مضى قد استخدمت أجداداً لأبي، وهذه الأسرة نفسها خذلتها فلم تهيء لها الزوج الذي حلمت به طويلاً، دونما جدوى.

يجب أن أقول هنا، على الفور، إن الكثير من هذا قد لا يتعدى كونه وهماً من أوهامي. فأنا أرى عائلتنا متماسكة على نحو ما، وأراها في الوقت نفسه مفككة متهافتة. أرى عمتي حلوة مسكينة تستظل بكنف أبي، وأراها كذلك روحاً عاتية تدبر في الخفاء ما يزعزع كيان الأسرة كلها. أرى أخوتي وأخواتي ثمرات حب، وثمرات كراهية، في آن معاً. يتباعدون عني مع الزمن، ويبقون على اتصال بي ليطمئنوا عليّ... إلا صبا. صبا وحدها بقيت قريبة، لصيقة بي، منذ البداية. وبقيت اهتم بشؤونها اهتمامي بشؤوني. عندما ذهبت إلى الدراسة إلى انكلترا، كانت هي في العاشرة أو ما يقاربها. وكان حنيني إليها هو الحنين الأكبر كلما فكرت بأهلي وأخوتي.

وبعد عشر سنوات أو أكثر بقليل، تزوجت صبا من شاب لا يمت لعائلتنا بأية صلة، اسمه نبيل الصالح، كانت قد تعرفت عليه في كلية الآداب التي درست فيها. كان الدكتور نبيل أحد المدرسين الشباب الذين يلذ لهم الاختلاط بالطلاب، والمساهمة في نشاطاتهم اللاصفية. كان أقرب إلى عمري، ولا أنكر أنني وجدته شاباً شديد الجاذبية، ولعله أوقع نصف بنات الكلية ـ على الأقل النصف الملتهب الخيال، المتعطش إلى الحب الرومانسي ـ في حبه. ولم أتردد في الموافقة حين جاء إليّ يخطبها، ولم يبق في دارنا سواي أنا وصبا، وعمتي العجوز التي كان يبدو أنها مصممة على أن تقبرنا جميعاً قبل أن تلقى في «مثواها الأخير».

ولست أدري بالضبط لماذا اشترطت على نبيل وصبا، إذا أرادا أن أبارك لهما زواجهما، أن يقيما في دارنا، قائلاً، إن الدار كبيرة، وأن لها على الأقل مدخلين مستقلين، وأن العروسين بحاجة في السنوات القليلة الأولى إلى إسعاف مادي، وتوفير من الراتب الشحيح، ريثما تستقيم أمورهما على نحو أرضى لهما به. نبيل، في واقع الأمر، من أب سوري الأصل استقر في عمورية في أوائل الثلاثينات، معلماً في إحدى المدارس الثانوية أول الأمر، إلى أن توفي وهو لم يحرز من الحياة سوى تعليم أبنائه في الكليات الجامعية، وإرسال نبيل لنيل الدكتوراه من جامعة عين شمس بالقاهرة.

أغلب الظن أنني أردت لنبيل وصبا أن يقيما معي في الدار، لا عوناً لهما فقط، بل خوفاً من الوحشة ـ وتعلقاً بأختي. لو كنت تزوجت أيامئذ، لربما جعلت نفسي في غنى عن عطفها وعنايتها بي. ولكنني ماطلت في الزواج زمناً طويلاً. أفسدتني حياة التلمذة في مانشستر، حيث وجدت صداقة النساء سهلة، ووجدت في التنويع فيهن تأكيداً على حريتي. كثيراً ما تذكرت قول أحدهم: «إنني اجتذب الكلاب والأطفال أينما ذهبت». يظهر أنني كنت اجتذب الكلاب والنساء. وكنت أعجب لذلك. فبينما كان الطالب العادي ينفق قرابة الألف جنيه في السنة، لم يكن لديّ إلا نصف ذلك المبلغ أو أقل. كان عليّ أن أدبر أمري كيفما اتفق. وكنت بالفعل اجتذب الكلاب من كل نوع أيضاً، الأليف منها والمسعور. وفي

جسمي أكثر من ندبة لعضة شرسة! وأما النُّدب في نفسي، فلا أعدّها. فأنا كاتب. ومن يكتب تنشب في لحمه أشرس الأنياب. هذا غير الكلاب التي تنبح عليّ، على رسلها، ليل نهار.

من أين جاءت نجوى إذن؟

من أعماق الجحيم الملتهبة. من أعماق الشلالات الصاخبة. من نسمات تموز القائظة. من زوابع شباط الهادرة. من حناجر الملائكة إذا ضحكت، ومن حناجرها إذا بكت، أو ترنمت. ذات يوم جمعة أخرجتها أختي صبا من بين يديها الفارغتين، كما يخرج الساحر أرنباً من قبعته. دعتها إلى الغداء معها ومع زوجها نبيل. والتقيتها ساعة الغداء، على المائدة.

التقيتها كما ألتقي العديد من صديقات صبا، والعديد من الغرباء الذين يتحولون مع الزمن إلى معارف وأصدقاء. التقيتها قبل سنوات. ولن أدعي أنني وقعت في غرامها من أول نظرة. أبداً. راقت لي، جداً. حسبتها ذكية، نعم. وحسبتها جميلة أيضاً، نعم. ولكنها لم تكن كثيرة الكلام إلا مع صبا. كان خجلها، أو خفرها، من النوع التقليدي الذي سئمته في فتياتنا. أريد من الفتاة ألا تلعب دور الجاهلة الغريرة المسكينة عندما تلتقي الآخرين لأول مرة. فلتكن طبيعية. فلتسمح لضحكتها بأن تنطلق من حنجرة حرة سمحاء، لا تهاب الضحك. أبداً... فتياتنا عند أول لقاء، وثاني لقاء، وثالث لقاء، تخدش الهمسة آذانهن، والكلمة لا تخرج من بين شفاههن إلا بالكلاليب. وإذا هن بعد حين، ربات الصوت وربات الكلمات كلها... وهكذا كانت نجوى العامري.

ولكن الملعونة تركت في نفسي أثراً ما، ولحظت صبا ذلك، حين اكثرتُ من اسئلتي عنها. وحصيلة ما قالته إنها من زميلاتها أيام الدراسة في كلية الآداب. وأنها قرأت روايتي («الأولى، الرديئة، «وجوه في الظل») ولذّ لها أن تلتقي بي... طيّب، اعزميها مرة أخرى... فعزمتها. وكانت نجوى أكثر انطلاقاً في المرة الثانية. ولكنها اخبرتنا ـ والكلام لك يا صبا، واسمع يا علاء ـ أنها خطبت قبل أيام، وبعد مدة قصيرة جاءتنا أنا ونبيل دعوتان

لحضور عقد قران خلدون نجل عبد العظيم الثغراني على نجوى كريمة محسن سليمان العامري.

لا، لم أطر فرحاً لذلك. لبرهتين شعرت أنني خلصت من عبء علاقة كان يمكن أن تقوم بيني وبين نجوى تؤدي إلى زواج مضطرب ـ لا بسبب منها، بل مني أنا، المزاجي، الزئبقي. ولكنني بعد تينك البرهتين شعرت بالامتعاض، بل الغضب. لماذا استعجلت هذه الفتاة أمر خطبتها؟ ألم تشعر الغبية بأنني اهتممت بها؟ لماذا لم تتقرب مني أكثر مما فعلت في زيارتين اثنتين؟ وقلت لصبا: «صديقتك هذه سخيفة.»

ـ لأنها دعتك إلى عقد قرانها؟

ـ لا لأنها لم تنتظر كلمة مني.

ـ علاء! لماذا لم تنطق؟

ـ لقد نطقت!

ـ تأخرت...

ـ هل من طريقة؟

ـ مستحيل، علاء! خلدون شاب طيب. ونجوى تحبه منذ زمن. ثم أنت...

ـ طيب، فهمنا. انتهى الموضوع.

انتهى الموضوع! اذكر هاتين الكلمتين بوضوح عجيب. قبل سنوات قلتهما، وما زالتا تترددان في ذهني. وكان علي أن أقول. لو دريت الآن ابدأ.

هل كان الأمر فعلاً كذلك؟

لا، لا. لم يكن الأمر كذلك بالضبط... كان للقائي بنجوى علاقة بأختي صبا. وهي كانت إحدى صديقاتها أيام الكلية. صحيح. غير أن لقائي بنجوى بدأ بما يشبه الانفجار. ولما تزوجت...

ولأعد إلى الموضوع بشكل آخر. ذاكرتي تمكر بي، تتحايل عليّ. فلأتحايل عليها.

[٨]

كنا في سيارة. هذا اذكره جيداً. في سيارة نجوى، وهي تسوق. فتاة في أواسط العشرينات من عمرها. صديقة صبا. جاءت في سيارتها لتصطحب صبا إلى معرض فني أقامه رسام أعرفه ـ رسام كان قبل سنتين أو ثلاث قد تخرج من الأكاديمية التي أحاضر فيها عن تاريخ الفن. كانت سيارتي تحت التصليح. وصبا إذ جاءها عصر ذلك اليوم ضيف طارىء من دمشق، وجدت أنها لن تستطيع مرافقة نجوى إلى المعرض. هكذا القدر يحوك مؤامرته الصغيرة عليك وأنت لا تدري. فقد صمم القدر على شيء لا بد منه: التقائي بهذه الفتاة، وهي لا تدري بالمؤامرة ولا أنا أدري. عندما جاءت إلى بيتنا، خرجت إليها صبا تعتذر ـ وخرجت أنا اتساءل إن كان لها أن توصلني إلى المعرض. المهم: فجأة وجدت نفسي جالساً في سيارة بجانب فتاة غريبة، زعمت أنها رأتني مرتين أو ثلاثاً من قبل. والحق، انني بعد قليل أدركت أنني كنت رأيتها أنا أيضاً ـ مع صبا. ولكن لم يخطر لي أنها ستباغتني بهجوم مركز.

قالت: «لماذا تجعل نساءك من ورق؟»

قلت: «نعم؟»

ـ لماذا تجعل نساءك من ورق؟

ـ نسائي؟ أية نساء؟

ـ في روايتيك الاثنتين.

ـ آه، طمأنتني!

ـ تطمئن لأن نساءك من ورق؟

ـ نسائي...

ـ نعم؟

ـ والله لا أدري. أليس من خلق مجتمعنا؟

ـ أي مجتمع؟

ـ مجتمعنا هذا.

ـ ستقول لي مجتمعنا المتغير، المتفجر... وتأتي المرأة بين يديك إمّا مسكينة عاجزة، أو قطعة من شوكولاته.

ـ وما الخطأ في الشوكولاته؟

ـ طيبة في أول عضتين أو ثلاث، ثم لا تستطيع إلا أن تبعدها عن شفتيك. وكلهن ورق يتمزق. لا يصلح حتى للكتابة.

ـ اذن، انت لا تحبين رواياتي؟

ـ لا أحب بطلاتك. أرجو أن تلاحظ الفرق. هل يمثلن حقاً تجربتك مع المرأة، أم عدم تجربتك؟

نظرت إليها مندهشاً. ما هذا الاستجواب؟

وبأقصى ما استطعت من ضبط للأعصاب، واصطناع للكياسة، قلت مفتعلاً ضحكة صغيرة:

ـ هل تعرفين أنت شيئاً عن الرجل؟ أو عن تجربة الرجل مع المرأة؟

ودون أن تستدير نجوى، قالت وهي تركز على سياقتها: «لا تغير الموضوع. ولكن ـ ها قد وصلنا.»

عندما نزلنا من السيارة، خطر لي أنها ربما تريد أن تغادرني. غير أنها، بعد أن أقفلت السيارة، انضمت إليّ وقالت: «استاذ، هل تمانع في بقائي معك في المعرض؟»

ـ أبداً، أبداً.

في القاعة التقيت بأناس عديدين أعرفهم، فعرّفتهم عليها. والتقت هي بفتاتين تعرفهما، فعرّفتني عليهما. لم نكد نرى اللوحات المعروضة، كالعادة، لكثرة من نصطدم بهم، فينصرفون إلى أحاديث لا علاقة لها بأعمال الفنان المسكين الذي قد حدّ سمعه طوال أسابيع تهيؤه للمعرض لسماع كلمتي إطراء من هذا، وكلمتي ثناء من تلك. ولكن اللوحات لم تثر رفيقتي في شيء. وكانت حيتي في القليل الذي رأيت أكثر من واضحة، وخشيت أن ألقى الفنان في ركن من القاعة ـ وقد رأيته يدافع

عن فنه مع جماعة من الطلبة ـ فتعمدت الخروج قبل أن يراني. وقالت نجوى: «هل أوصلك إلى البيت؟»

قلت: «إن كنت لا تمانعين.»

وفي السيارة قالت: «لماذا يكررون أنفسهم إلى ما لا نهاية ـ هؤلاء الفنانون؟»

ـ القحط، يا نجوى. إنه القحط. قطرة يتيمة من الماء تبدو لهم وكأنها سيل عارم.

ـ هل هناك سيل عارم في مكان ما من عمورية؟

قررت عندها أن أجابه بحدة هذه الفتاة «المتشاطرة» أكثر مما يبرر عمرها. قلت: «يتوقف الأمر عليك. السيل العارم لا بد موجود، ولكن السؤال هو: هل تريدين أن تشربي، أم أن تسبحي، أم أن... تغرقي؟»

فأدارت وجهها كاملاً نحوي، وكانت السيارة قد توقفت لشدة الازدحام، وقالت ضاحكة: «استاذ علاء. أنا لا أسبح، أنا أغرق.»

ـ عن صُدْفة، أم اختيار؟
ـ عن اختيار، طبعاً.
ـ اذن، سنبحث معاً عن الطوفان. وسنبدأ غداً مساء. أين ألقاك؟
ـ آسفة. أنا مخطوبة.
ـ اذن ركّزي على السياقة، واكتفي بالـ...

ولم أكمل. غير أنها ضحكت مرة أخرى، وركزت عينيها (رأيت بريقهما، في داخل السيارة المظلمة، كلمعة البرق) في عيني، وقالت: «قلها: اكتفي بالقطرات اليتيمة...» وبدرت مني ضحكة صغيرة حاقدة إذ قلت: «بالضبط!»

ـ أهذا كل ما استحق؟

وفجأة أحسست برغبة عنيفة في غرز أصابعي في ذراعيها، في إلقائها على ظهرها والسقوط بفمي على شفتيها حتى تختنق أنفاسها على شفتي لذةً،

أو كراهية. ولم أقل شيئاً. ولكنها أكملت: «ومن قال إن الطوفان سيسلم نفسه ليديك؟»

لم أجب. كان الاستمرار بالكلام مستحيلاً. إمّا أن اندفع بحركة غير لائقة، أو اسمّر نفسي في المقعد، وأقص لساني. وقد أدركت هي ما أنا فيه من الاحتدام، ولا شك. خيل إليّ أن خدها احمّر ثم ابيضّ ـ ولو أنني لم أنظر إليها طويلاً. وقلت لها: «نجوى، أرجوك أن تنزليني هنا.»

ـ ولكن بيتكم بعيد.
ـ أرجوك، لا أريد العودة إلى البيت. عندي من أراه هنا...

ونزلت إلى رصيف يعجّ بالبشر، وليس فيهم واحد أريد أن أراه.

استمررتُ في السير بين الناس. توقفت عند بائعي المرطّبات وشربت بارداً. تصفحت كتباً ملقاة على مداخل المكتبات، واشتريت كتابين. بلغت الجسر. تمشيت على جانبه أرقب تراقص الأضواء في مياه النهر. بدا الجبل بعيداً، وقد رشقت عليه حفنة من نجوم تتلألأ. وبقيت نجوى تشدني من عنقي إلى حيث لا أدري. استقللت سيارة أجرة، وذهبت إلى بيت صادق.

ومرت ثلاثة أيام أو أربعة لم أرَ فيها نجوى. ولكن هل الرؤية بالعين هي كل شيء؟ ليتها كانت! ما الذي عذبني، ويعذبني، ولسوف يلاحقني إلى الأبد، إلا تلك الرؤية الداخلية الهائلة، المريعة، اللذيذة، التي تقتادني في قفار لا معالم فيها، في أقاليم لا تخوم لها، في أحاسيس ليس ما يشبه عنفها إلا الزلزال والموت؟

وإذا رسالتان تصلان معاً ـ بدا لي من خطهما ونوع غلافيهما أنهما من مرسل واحد.

وهكذا كانتا: من مرسلة واحدة. تأخر البريد بإحداهما، وأسرع بالأخرى، فوصلتا في صباح واحد معاً.

[٩]

عزيزي الاستاذ علاء الدين نجيب،

أرجو ألا تدهشك هذه الرسالة. ستعرف قبل البدء بقراءتها من هي صاحبتها، فيضعك ذلك في حالة ذهنية مسبقة: هل ستكون حالة عداء، أم تهجم، أم استخفاف؟ ما يهمني هو ألا تندهش لأنني أكتب إليك هكذا، من الباب إلى الطاقة، كما يقولون. بل أن تعتبر الأمر طبيعياً ـ كأنه امتداد للحديث الذي أوقفته أنت فجأة، وهربت. أجل، هربت. جعلتني أوقف السيارة في مكان مزدحم يكاد يستحيل الوقوف فيه، ونزلت دون أن تؤشر لي بيدك من على الرصيف ولو إشارة خفيفة توحي بأنني كنت أكثر من سائق تكسي لديك. أقول «كنت» ـ لأنني ربما في هذه الأثناء قد أصبحت لديك شيئاً آخر بالمرة. فتاة «جسورة؟» سليطة؟ سأترك الكلمة الصحيحة لك. أنا، كما ترى، أنا. عدت إلى روايتك الأخيرة «النوارس» حالما وصلت إلى البيت. وأعدت قراءة الكثير منها بسرعة. وتوقفت عند بعض الصفحات، لأرى، هل اذنبت معك فيما قلت لك عن بطلاتك. فشعرت أنني، ربما، ربما، لم أصب تماماً فيما قلت. أترى كم منصفة أنا؟ وقلت اذن، سأكتب إليك رسالة. ألستَ معتاداً على تسلّم الرسائل من المعجبين والمعجبات؟ ولكن، كما ترى، أنا لا أكتب كمعجبة. أرجوك أن تنتبه إلى ذلك. أنا أكتب كمناقشة، كمتسائلة، كمطالبة. وأكتب بشيء من الغضب ـ فلا تنخدع بلغتي الدمثة هذه ـ لأنك تركتني في وسط الشارع وأدرت لي ظهرك، وأنا بعد لم أقل شيئاً حقيقياً. كان بإمكاني أن أقول إنك في وادٍ، والمرأة في واد. كان بإمكاني أن أقول إن تجربتك السياسية شوهت عواطفك، ولم تبلغ بك ما تريد. كان بإمكاني أن أقول إن العلاقات الانسانية في روايتك مزيج من

اضطهاد متبادل، وأن الحب لم يتخطَّ عندك حدود الحلم ليقع على صخور العنف والمشيئة الخارقة. ولكنني لن أقول شيئاً من هذا، حتى الآن. فأنا لن أنكر، عندما عدت إلى «النوارس» أنني وجدت نفسي أنزلق في مزالق عذبة، لذيذة، وأن بعض أشخاصك وهبوني من عزائمهم عزيمة غريبة تنهض بي على قدمي وتعطيني ثقة في عضلاتي الذهنية، أو الروحية، أو... ما هي الكلمة «الميتافيزيقية» التي تصلح للغرض هنا؟ وكان هذا شفيعاً كافياً. ولبضع ثوان، وقعت في ذلك الخطأ الذي تقع فيه الكثيرات من النساء: توحّدتُ أنا مع سُها، جميلتك، وتوحدتَ أنت مع عمّار، ضحيتها. ولكنني هززت رأسي، وزجرت نفسي، لأرفض هذا الوهم الذي هو بالضبط ما تريده أنت لقارئك. وعاد إليّ الغضب لأنك أدرت لي ظهرك، وقطعت النقاش. حتى في «النوارس»، رأيتك تقطع المجابهة، بشكل ما. فكيف لا يسقط بطلك ضحيةَ رغم كفاحه، وحبه، وعطائه؟ وتساءلت: هل أريد اذن أن تكون سُها هي الضحية، ويبقى عمار منتصراً ـ ذلك الانتصار الزائف الذي لا يوجد إلا في أفلام الكاوبوي؟ وتساءلت مرة أخرى: ترى هل أنت بالذات، أنت الذي أوجدت عمار، هل أنت ضحية من نوع ما؟ ضحية امرأة؟ لا أظن. سُها ليست حقيقية. إنها كناية، كما كان يقول لنا أستاذ الأدب. لقد وضعتَ في كتابك إنساناً حقيقياً إزاء إنسان غير حقيقي: وضعت جسداً وروحاً إزاء فكرة، إزاء رمز، سميته سُها. ولم تقل لنا بالتحديد، ما وراء هذه الفكرة ـ وما وراء هذا الرمز. امرأة، فقط؟ قطعاً، لا! على كل، امرأتك، اقصد بطلتك، لم تكن كلها شوكولاته. لم تذب كلها بين شفتيّ. ولا أنكر، انها في النهاية تركت في الحلق ما يشبه المرارة، أو حرقة الفلفل الأسوَد... وتذكرتُ أنني عندما كنت طفلة، اذا فعلت أو قلت شيئاً تعتبره أمي نابياً، ملأت فمي بالفلفل قصاصاً. ومع ذلك، لم تكن سها بالنسبة لي حقيقية. فكيف لو جعلتها فعلاً حقيقية؟ أي فلفل لكنت حرقت به حلوقنا جميعاً؟

عزيزي الأستاذ علاء الدين، هذه الأسطر كلها فقرة واحدة؟... سوف تتهمني بأنني لا أستطيع أن أسلسل أفكاري، فأضعها في فقرات يأخذ بعضها برقاب بعض، كما كان يقول أيضاً ذلك الأستاذ. طبعاً، لا أستطيع أن أسلسل أفكاري، بعد الذي حدث مساء اليوم. الساعة الآن تقارب الواحدة بعد منتصف الليل. وغضبي جعل يغادرني. ولم يبق لي إلا أن أقول: مزّق أو أحرق هذه الرسالة إن شئت، وتصبح على خير.

نجوى العامري

عزيزي الأستاذ علاء الدين،

هذا الصباح استعجلت، وأرسلت إليك الرسالة التي كتبتها الليلة الماضية، وشعرت بأنني حسناً فعلت، أولاً بكتابة ما كتبت، وثانياً، بالاسراع بإيراد ما كتبت. غير أنني وجدت نفسي طيلة النهار مسكونة بما فعلت، أفكر فيه، في كلماتي، فيك أنت، فيما قد تقوله أو تكتبه ـ إن كتبت أبداً ـ جواباً على رسالتي. ووجدت أنني لم «افشّ غلّي» بقدر ما كشفتُ عن زيادة ردة الفعل لديّ عما ينبغي. وخطر لي، لماذا لا أتصل بك هاتفياً، وأقول ما أريد، وأفضّ الأمر؟ ولكنني رفضت هذا الخاطر. لأن ما أقوله كتابة أوضح كثيراً، بالنسبة لّي، مما أقوله شفهياً. ثم أنا لا أريد محاججة منك، أو جدلاً معك. كما أن من يقطع النقاش مواجهة، قد يقطع المكالمة هاتفياً، فأين أكون حينئذ؟ وبما أنك تكون قد تسلمت رسالة هذا الصباح في يوم أو يومين، أريد لهذه الرسالة أن تأتي لاحقة عليها. ومن يدري، لعلك تستلم الرسالتين معاً، وبريدنا المحلي لم يدَّعِ يوماً المبالغة في سرعة الايصال. ولا أظنّ أنك حال قراءتك الأولى، ستجلس إلى منضدتك وتقذفني بجواب سريع ـ مفحم، وطويل. فأنت بصفتك كاتباً، تتروى قبل أن تُحمِّل الورقة شيئاً من فكرك ـ وقد تتروى طويلاً: أم أنني مخطئة؟ أنت تكتب، فيما أظن، وعينك على جمهور

سيقرأك ويصغي إليك أجيالاً متلاحقة، ولذا فإنك تأخذ الحذر، وتحسب للكتابة حسابات لا تهمني. أما أنا، فأكتب كما أتكلم. أخط الكلمة الأولى التي تخطر ببالي، لأن الديمومة لا تدخل يوماً في حساباتي. ولذا لا يهمني أبداً إن أنا شطحت، أو أخطأت، أو لم أحسن الأسلوب. الذي يهمني هو أن أقول في ساعتي هذه، ما يجول بخاطري في ساعتي هذه. ولكن، كما ترى، قد أغيّر رأيي ـ كما غيّرت رأيي عشر مرات منذ أن كتبت رسالة البارحة. ولذا تراني أسرع لأخبرك بأن عليك أن تهمل تلك الرسالة. وألا تجيبني عليها. إلا إذا وجدت أنك ـ لا! هذه لعبة لا ألعبها، ولا أريد أن ألعبها. بل لا أعرف كيف ألعبها. ما الذي يعطيني الحق فيها أصلاً؟ ما الذي يجيز لي أن أكتب عن سُها ما كتبت، أو عن عمار، أو عنك انت بالذات؟ ما الذي ستظن بي، إلى أن تتسلم هذه الرسالة إذا كنت قد قلت عني «جسورة»، أو «سليطة» ـ فسوف تقول الآن: «ونزقة أيضاً.» ولن أحاول رد التهمة عني. بل اسمح لي بأن أذكّرك بالحادثة الصغيرة في الفصل الثالث من «النوارس» ـ فأنت الذي كتبتها، أو اخترعتها، لا أنا. حادثة نهى، أخت سها (لماذا تجعل الأسماء أشبه بالقوافي في قصيدة عصماء؟)، حين ذهبت بسيارتها إلى الحديقة المجاورة لبيت عمار عند مغيب الشمس، لعلمها بأن من عادته أن يتمشى في اتجاهها كل مساء كرياضة يومية، وفاجأته بالقول: أنصحك بأن تترك سها وشأنها، لا لمصلحتها، بل لمصلحتك ـ أو شيء من هذا القبيل. (أرجو المغفرة عن تلخيص صفحاتك الكثيرة الرائعة إلى سطرين فجينْ.) وعندما يغضب عمار لهذا التدخل من الأخت، تقول له: أنا مسافرة غداً مع زوجي إلى فرنسا لثلاث سنوات أو أربع. ولا مصلحة لي أنا في هذا الأمر. ولا يدفعني إلى هذا اللقاء معك إلا، خوفي عليك. وتعود نهى إلى سيارتها، وتنطلق بها، لتترك المسكين في حيرة من الموضوع كله... غير أنك استمررت بالرواية، لتجعل من ذلك اللقاء نذيراً لم يأخذ به عمار. وصار الذي صار... أذكّرك بهذه الحادثة الصغيرة

(طبعاً، سيقول أكثر قرائك إن أموراً كهذه لا تقع في عمورية، وإن علاء الدين نجيب إنما يوقعنا في هذه الأوهام بقدرته الأسلوبية في التحليل والسرد والحوار، إلخ، إلخ) ـ اذكّرك بها، وكأنني الآن ألعب دور نهى، وبرسالتي هذه أترصد لك في الطريق لأسلمها لك. لا مصلحة لي أنا في الأمر، كما تعلم. بعد أسبوعين اثنين سأتزوج، واذهب مع زوجي إلى القاهرة. ولا أنا في الواقع أخشى عليك ـ بقدر ما تجدني لست أخشى على نفسي. لي ثقة عميقة بأن فطنتك لن تخونك، ولن تخون امرأة تأتمنك على خاطر خطر لها، فرأت لسبب ما أن من الضروري لها أن تطلعك عليه. فهل ستقول، بعد هذا كله، إنني نزقة؟ على الأرجح، لا.. إذن ما الذي ستقول؟ الأفضل لا شيء، لا شيء أبداً. على كل، فأنا لن أعرف. ولا أريد أن أعرف. وأنا الآن هي التي تقول لك: أستاذ، قف بسيارتك هنا، لأنني سأنزل. لي مشاغل أخرى. وألف شكر على التوصيلة. وعندما أتركك، لا تنظر من مقعدك إلّي وأنا أسرع على الرصيف ـ فأنت لن تعرف إلى أين سأذهب. ولن تسمعني أقول لك: «وأنا أيضاً لا أعرف.» أليس ذلك ما تود لو تسمعني أقوله؟

نجوى

ملاحظة: آسفة! نسيت مرة أخرى أن أسلسل أفكاري في فقرات!

وبعد أيام قليلة جاءتني رسالة أخرى:

عزيزي الأستاذ علاء الدين،

هذه رسالتي الثالثة ـ والأخيرة. مضى أسبوع على الأولى. وقد فكرت أكثر من مرة بالاتصال بصبا أو زيارتها، عسى أن أراك. كالمجرم الذي يتحرق إلى زيارة مكان جريمته. ولكنني أحجمت. أو بالأحرى، كبحت نفسي. لا أريد أن أراك إلا بعد أن يكون أثر الرسالتين الماضيتين قد تلاشى أو كاد، وتكون أنت قد نسيت ما قلته أنا بالضبط، فلا تثير عندئذ معي أمراً يتصل بهما. بعد أيام معدودة

سأسافر وسأغيب عن عمورية شهراً على الأقل. مما يساعدنا كلينا في قبر خلافنا إلى غير رجعة. لا تضحك، من فضلك، على كلمة «خلافنا». ستقول: هل بيننا خلاف؟ وحول ماذا، بالضبط؟ أي ماكرةٍ أنا! أثير خلافاً، ثم أدعي أن لا خلاف بيننا.. ثمة خلاف شديد بيني وبينك، أصبح الآن خلافاً بيني وبين نفسي، وأرجو أنه أقحم نفسه إلى داخلك فأصبح خلافاً بينك وبين نفسك أنت أيضاً. وإلا، فلماذا أجدني هذه الأيام كلها أفكر بذلك المساء، وكأنني أشعلت ناراً بثيابي أريد أن أطفئها ولا أنجح ـ أو أنني أشعلتها بثيابك، أريد لها ألا تنتشر، رغم إحساسي بمزيج من بؤس المذنب وشماتة المنتصر؟ من المحتمل جداً، بل هو الأرجح، أن هذا وهم من أوهامي، وأنني في رأيك لا ناراً أشعلت، ولا شرارة قدحت ـ حتى ولو شرارة واحدة مسكينة. فلماذا هذا التخرص، وهذا الاسترسال في خداع النفس؟ لماذا هذا التفكير فيما لا يصمد للفكر، كمن يحاول أن ينحت تمثالاً من الهواء أو الماء؟ ما أكثر تماثيلي الهوائية! أقف أحياناً معها في فضاء فسيح، أدخل في تجاويفها وأخرج منها، ثم أسقط بغتةً إلى أرض حصاها كالمسامير. سأتحدث عن هذا الخلدون قريباً. سنتحدث كثيراً، وسأجعلك موضوعاً لحديثنا أحياناً، دون أن أخبره أنني كتبت لك ثلاث رسائل ملأى بأسئلة لا أجوبة لها، وأجوبة لأسئلة لم يسألها أحد. سآخذ «النوارس» معنا إلى القاهرة، وهناك أجعله يقرأها، إن كان يحبني. هل يقرأ العرسان كتباً في شهر العسل؟ سنخرق العادة. وإذا التقيت بك بعد عودتنا ـ من يعلم؟ قد نلتقي ثانية، رغم كل شيء ـ سأخبرك بالنتيجة. وإلى ذلك الحين، أرجو ألا يتسع الخلاف بينك وبين نفسك لأكثر مما قد يسعفك في كتابة فصل آخر في روايتك القادمة. لاحظ أنني لا أقول: أرجو ألّا يكون هناك خلاف بينك وبين نفسك (مهما يكن دوري أنا فيه)، لأنني أكون حينئذ قد رجوت لك ما يوقف قلمك عن الحركة. وهذا ما لا أريده لك. هل أنا مغرورة؟ طيب، أنا مغرورة. قلها، ثم ادع لي بقران ميمون، وشهر

عسل سعيد، وأفكار أقل هوائية وأكثر صموداً للحس، والعقل، والمناقشة. وأسلم لقارئتك المشاغبة.

نون

عزيزتي الآنسة نجوى،

رسالتك الثالثة جعلتني أخيراً أعزم على كتابة جواب ما، ولو أنني واثق من أنني لن أرسله إليك. لا لأن رسائلك لم تثرني، وتحيرني، وتغضبني (وتفرحني؟). ولا لأنني في غنى عن المشاكل، وأنت فيما يبدو يروق لك خلقها حباً في المشاكل. ولا لأنني أخشى التعامل مع القارئات المشاغبات اللواتي يرسلن إليّ مع أوراق البنفسج مناخس الشوك ويطلبن إليّ فرزها- أو واجباً أكثر من ذلك عبثية. ولكنني تذكرت، يوم جاءتني رسالتاك معاً، إحدى العبارات التي كان ينطق بها الجنيّ في أقاصيص أميّ أيام طفولتي، جواباً على عابر سبيل ضائع سأله عن الطريق إلى مدينة كذا، والملك كذا والأميرة كذا، إذ يقول الجني: «لولا سلامك سبق كلامك، لخليت طيور السما تسمع قرقعة عظامك.» كيف يجرأ عابر السبيل على ازعاج الجني الغافي في ظل شجرته، الغافل عن المدن وملوكها وأميراتها، بأسئلة تعيده إلى ما يريد نسيانه؟ كيف تجرأين على العودة بي إلى حيث لا أريد العودة، ومطالبتي بالتأمل في ما لا أريده موضوعاً لتأملي؟ولكن سلامك سبق كلامك، ولذا فإن طيور السماء لن تسمع قرقعة عظامك - على الأقل بسبب منك أو مني - هذه المرة.

وأنا أذكر هذا الجني لأكثر من غرض في نفسي. يبدو أنك، على طريقتك الأنثوية التي ستقولين إنني لا أفهمها - ولعلك مصيبة هنا - أحسستِ، أو اكتشفتِ، أو حدستِ، أنني نوع من جني، ينبغي عليك ان تصنِّفيه. هل أنا جني قائم في الغيب، كطاقة ممكنة، تستحضرني لمسة منك على خاتم في أصبعك، أو مصباح في يدك، فيجلجل صوتي في الفضاء: «لبيك، لبيك، خادمك بين يديك»؟

أم أنني جني في قمقم اصطدته في شبكتك، فخرجت منه لأملأ الفضاء بقهقهتي واهددك: «اية ميتة تشائين أن أميتك؟» وعليك أن تحتالي عليّ كيما أعود إلى قمقمي. أم أنني جني سارح في الوديان والجبال، أنام بين الدوالي، وتحت تهويم الفراشات، ولا أعير اهتماماً لأحد، إلا إذا بادرني بالسلام وكرر المبادرة. وإذا سألني حينئذ عن شيء، مهما صعب، عن الماضي كان أم المستقبل، عن الحب كان أم البغضاء، عن الأنس كان أم الجن، وجد عندي الجواب الذي هو المنتهى لكل سؤال أو جواب. هل خطرت هذه الفكرة ببالك؟

لا أظنها خطرت بهذا الوضوح. الوضوح واجب الكتّاب من أمثالي، لا القارئات المشاغبات اللواتي يكتفين بالضبابيات من أفكار تهزهن، وهن نصف حالمات، نصف واعيات، الحلم لديهن مرهق ببقايا الوعي، والوعي مرهق بشوارد الحلم. لا بأس. أنا لا أطالب بالمستحيل. وقد تلقنت من الكياسة ما يجعلني- إلا في بعض الأحايين - أسحب مخالبي إلى باطن يدي، واستجيب للسائل بشكل ما، ولا سيما إذا كان السائل طويل الأهداب سابل الشعر مثلك. هل أقول: لبيك؟ هل أعود صاغراً، منحازاً لحيلتك، إلى قمقمي؟ هل استخرج المكنونات من أعماق معرفتي وحكمتي فأفوه بالروائع، فهمتها أم لم تفهيمها؟ أي جني تريدينني أن أكون؟

ولكن لا بد لي من القول أن جنيك هذا فاجأته أنت بما لم يكن في حسبانه مرتين. المرة الأولى، في السيارة، جيئة وذهاباً. والمرة الثانية في رسائلك. وحق له أن يراجع نفسه تجاهك على الأقل مرتين، لئلا يفتضح أمره بين أهل مملكته. لأنه يعلم أن المرأة التي تُعَني نفسها بكتابة ثلاث رسائل، تناقض الواحدة الأخرى، قد تكتب رسالة رابعة، وخامسة، وسادسة، وأنىّ حينئذ لجني ساذج مثله، كان يستضعف الأنس حتى وقت قريب، أن يخفي وجهه بين أقرانه، وهذه الإنسيّة تطلق عليه، لا سهماً تلو سهم (كما كان من

دأب الحسان أن يفعلن فيما مضى)، بل قنبلة تلو قنبلة، مما يتفق وروح العصر؟ ولولا أن الجني مصنوع من نار ودخان، لساءت حاله ووخمت عاقبته، ولما استطاع من بين الشظايا أن يخط إليك هذه الأسطر، التي قد لا تقع بين يديك.

أراك تغارين على مصلحتي، وتستشهدين بالأمثال، وتدعين أن هناك خلافاً بيننا، وبينك وبين نفسك، وتتصورين أن هذا الخلاف من القوة بحيث يقتحم عليّ ذاتي، ويشطرني شطرين. وقد راجعت نفسي وأنا في قمقمي، فلم أجد فيها ذلك الشرخ الذي ينبىء عن خلاف في دخيلتي من النوع الذي تذكرين - خلاف يهمك، أو أنت طرف فيه. ولكن في نفسي مئة شرخ آخر ودخيلتي لا أدري كيف تبقى هكذا متماسكة في القمقم رغم هذا التفتت الذي يعود إلى سنين مضت لا تعرفين أنت شيئاً عنها. وراجعت نفسي كشبح قائم في الغيب، فوجدتني أيضاً اشتعل وأدخّن بقضايا بعيدة كل البعد عنك، أتوق لمن يستحضرني كطاقة قادرة على الفعل، ولا أراه. ولكن حين راجعت نفسي جنياً يطوف في الجبال والوديان، بعيداً عن المدن ولكنه مليء بأسرارها، اكتشفت فتاة ضائعة على غير عادة الفتيات، تستفزّني ولا تسألني، وكأنها تريد قلب الأدوار، فالتمس أنا السؤالَ إليها، لكيما تتفضل هي بالجواب. وهذا يحدث خدشاً، ولا أقول شرخاً، في كبريائي. وكبرياء الجن لا يعرفها البشر. إنها شيء جنوني.

غير انني سأتحكمّ بكبريائي، وجنوني. وإذا استطعت أن تكتبي مرة أخرى - ولو أنني لا أنصحك بذلك - ساعدتني في المزيد من التحكّم بهذه الكبرياء وهذا الجنون.

أعدت قراءة ما كتبتُ في هذه الرسالة، فقررت أن أوصلها إليك بطريقة ما. سأطلب إلى صبا أن تحملها إليك. صبا أعز الناس إليّ، ولا اعتقد أنها تذهب بها الظنون. لست أدري بأية حجة سأتعذر معها. سأقول لها إنني أدعو لك، كما طلبت مني، بقران

ميمون، وشهر عسل سعيد، وأيام هانئة، وحديث ممتع كثير. ولا تعذبي خلدون بروايتي، أو اية رواية أخرى. مع أجمل التحية،

علاء الدين نجيب

بعد يومين أو ثلاثة، جاءتني الرسالة الرابعة، ولسبب ما، أو لسبب يبدو واضحاً الآن، شعرت أن الحوار الذي أقامته نجوى معي لن يكون إلا حوار الطرشان. ولسوف يستحيل عليّ الاستمرار به. وهذا نص الرسالة:

عزيزي علاء،

كلمة قصيرة، اكتبها على عجل. فأنا لا تتاح الآن لي أية خلوة للكتابة، لانشغال الأهل بي وبزواجي، والذي سيتم بعد يومين. فاغفر لي السرعة والفوضى في ما أريد أن أقول. أتت صبا، وأعطتني رسالتك، وهي تقول إنك سجلت فيها أسماء وعناوين وتلفونات بعض أصدقائك في القاهرة. ومع ذلك، فقد كان لها من حسن التصرف أن تأخذني إلى غرفة النوم لتسلمني الرسالة، لكي لا يرانا أحد. حاولت أن أكتم فرحي، ووضعتها في جزداني دون أن اقرأها، وأظن أن صبا اندهشت من أنني لم أقرأها على الفور أمامها. وتظاهرت بأن الأمر غير مهم. وبقيت أتحرق في انتظار لحظة مغادرتها كي أسرع إلى حجرة النوم، وأقفل بابها، لأقرأ كلماتك. الساعة الآن الواحدة بعد منتصف الليل. تأخر خلدون عندنا، والأقارب لم يتركونا حتى منتصف الليل. وبقي أبي غادياً رائحاً، يسمع الأخبار من الراديو، ويهيىء نفسه للنوم في مراسيمه المعتادة.

والآن أنا وحدي، أخيراً، أكتب إليك على طاولة التواليت. إذا لم أكتب غداً - وهو أمر مستبعد - قد أكتب إليك من القاهرة. ولكن لا تتوقع ذلك. ألف شكر. أنت جني رائع. إذا كنت قد انطلقت من قمقمك، لا تعد إليه. أرجوك. مهما فعلت أنا، ومهما قلت. عندما نعود إلى عمورية، سنلتقي بكل تأكيد. خلدون يشير

إليك بود كثير، وعلاقتي بصبا ونبيل حميمة ولن أفرّط بها. وإذا أردت أن تكتب إليّ، فاكتب، واحتفظ بما تكتب، إلى أن أجد طريقة لاستلامه. في رأسي زوبعة من الكلمات والعواطف والأفكار. ولكنني جعلت أخاف قليلاً. أخاف أن أبالغ في جسارتي على جني يهدد بتكسير عظامي. لأنني أخشى أن النهاية لن تكون إلا نوعاً من تكسير العظام. لا لا لا لا. هذا الكلام غير صحيح ولا أعنيه. وأسلم أبداً للمشاغبة الضبابية

نون

ملاحظة: بعد القاهرة سنذهب بالطائرة الى بغداد لثلاثة أيام. سأكحّل عيني بمرأى دجلة أخيراً. . . كان يجب أن أسألك، هل لك هناك أصدقاء نستطيع أن نتصل بهم؟

عندما استلمت هذه الرسالة كانت نجوى قد غادرت عمورية مع خلدون، ولم يكن ثمة مجال لجواب. ولكنني لم أكن لأجيب، حتى لو لم تكن قد سافرت. أحسست بأن المسألة كلها عبث، فيه الكثير من الصبيانية، والكثير من الخطر غير الضروري. حين كتبت رسالتي برق في خاطري أملٌ في مغامرةٍ تكون المتعة فيها موازية لما فيها من خطر: تصورت أن هذه الفتاة الذكية، المدللة، الطائشة، تبحث عن تحدٍّ، عن مجابهة مستحيلة، وإلا فكيف تبدأ مراسلةً كالتي فاتحتني بها، وهي على وشك الزواج؟ هل كانت تستدرجني، لكي تصدني؟ أم كانت تبحث عمن له من الطيش والتمتع بالتحدي ما يجعله رفيقاً لها في فعل جنوني؟ الثاني هو ما حسبت، ليوم أو يومين ـ على الأقل في الساعات التي جلست فيها لأكتب اليها رسالة نصف بريئة. لو لم أجدها جميلة، وشيطانية، وشهية، لما تزحزحت في اتجاه القلم والورقة شبراً واحداً. ولكن خيالي من شأنه دائماً أن يشطّ بي، فاتمتع بالشطط، لأن فيه لعبة تخترق المألوف. من قال إن دافع اللعب في الحضارة لا يقل خطورة عن دافع الجوع، ودافع الجنس؟ لقد صدق! لماذا يلعب بعض الناس البوكر طيلة ساعات الليل وهم يخسرون، ويركب بعضهم دواليب الهواء مع أنها ترعبهم، ويسوق بعضهم

السيارات بأخطر السرعة، ويراهنون بمدخّراتهم الأخيرة على الخيل السابحة مع الريح ولو دقيقتين؟ هناك أناس لا يقنعون بالتجربة إلا إذا انطلقت بهم على شفا الموت: حينئذ فقط يعتبرون أنفسهم أحياء، ولا سيما عندما يقهرون الموت، أو على الأقل يحتالون عليه. هكذا ظننت الأمر، حين كتبت رسالتي. إنني أغامر، أو أقامر. ولكن رسالة نجوى جاءت لتضع حداً لظني. حوار الطرشان ليس من شأني، ولن ألعب لعبةً طرفُها الثاني غافل عن أصولها. لعل نجوى أرادت شيئاً، ثم غيرت فكرها. ومن حقها أن تفعل ذلك. وإذا غيرت فكرها مرة أخرى، فلتبحث عن كاتب آخر تناقشه حول بطلاته.

[١٠]

ورطتموني.

غسلتم دماغي. وجدتم ثغرة في جداري النفسي، فوسعتموها بتهديكم، ونفذتم منها إلى دواخلي. أكاد اسمع صوتكم في ثنايا صوتي، حين أقول: أنا قتلتها. أيعقل أنني قتلتها؟ أسألكم بالله وأنبيائه: أنا الذي فرشت لها أهدابي لتمشي عليها، أأقتلها؟ لو أنها قتلتني هي، لما همّني. ولما همّني من كنتم ستظنون هو قاتلي. لو أنها قتلتني ـ أنا أعلم الناس بنجوى ـ لما ترددتْ لحظة في رفع صوتها على رؤوس الأشهاد لتقول: «هذا النذل، أنا قتلته بيدي». أو «هذا الرجل الرائع، لم استطع تحمله، فقتلته». أو «هذا العاشق الخائن، غدر بي مع امرأة أخرى، فوضعت رصاصة في جبينه.»

أما أن أزعم أنني أنا الذي قتلتها، فأمر عجيب حقاً. هل خانتني؟ لا. هل ضيّقت عليّ سبل الحياة؟ لا. هل سئمتُ منها يوماً واحداً؟ أبداً. هل أدخلتني في عوالم مجنونة من اللذة، ونسيان الذات؟ نعم. وهل يكون هذا مدعاة للقتل؟ أسألكم بالله! اتقولون إنني ربما قتلتها حباً؟ آ، لو كنتم تقولون ذلك، لربما طاب لي أن أصدق، فاتساهل غروراً وأقول: جائز، ممكن. . . ممكن؟ لا، مستحيل. اسمعوا! هذه المرأة كانت شيئاً خارقاً. بركاناً من الحيوية. واحدة من عشرة ملايين. تقرأ كل كلمة اكتبها، ثم تضيف ما تشاء، وإذا ما يتحقق من كتابة لا تصدقه عيناي. كانت لي الحد الفاصل بين الحياة واللاحياة، بين الكينونة والعدم، بين أن تجري في عروقي النار، وأن يجري فيها الماء. أنانيتي في امتلاكها كانت كافية لأن تجعلني أدفع عنها الريح إذا اشتدت، لا أن أصوّب نحو عنقها المسدس. انتم غسلتم دماغي لأمر في نفسكم، لأنكم عجزتم عن ايجاد القاتل، فاستسهلتم القبض عليّ، ولئلا تُتّهموا بعدم الكفاءة، وبعدم القدرة في التوصل إلى الفاعل الحقيقي، قلتم، لنلقِ القبض على علاء الدين نجيب

ـ فالكل يعرف عن علاقته بها. وسنجعله يقولها بالخط العريض. أسبوع أو اثنان في زنزانة مظلمة، مع العطش والاختناق حين يملأ القمل شعر رأسه وعانته، وتتجرّح رئتاه بالنتن، مع لكمتين أو ثلاث، تكفي للغرض. نقدم له بعد ذلك كوباً من الشاي، وسيكارة مع ابتسامة، ويعترف بأنه قتل حتى أمه ـ دع عنك امرأة اطلقت ألسنة الناس في كل اتجاه. ولا نستبعد أنه قد يلذ له اعتراف كهذا. فهؤلاء الكتّاب صنف خاص من البشر: خيالهم أوسع من واقعهم، وأوهامهم تشط بهم عن حقائقهم الصغيرة، فيسكنونها ـ أو تسكنهم، حتى تصل بهم الحال نقطة لا يميزّون عندها بين اليقظة والحلم. والذي لا شك فيه أنهم يرفضون العادي، ويقبلون الغريب، والشاذ. فاذا قلنا له: «استاذ علاء، أنت قتلت حبيبتك»، سيفرح، ويحلّق به أوهامه، ويقول: «طبعاً. وهي ليست الحبيبة الوحيدة التي قتلت.» وربما اعترف بجرائم أخرى لم نكن ندري بها. آخ منكم! اصطدمت بأمثالكم في كل منعطف سرت فيه. في كل مدن الأرض رأيت أمثالكم. المصيبة هي أنكم عاديون، عاديون جداً. والله سبحانه وتعالى شاءت له حكمته أن يخلق الكثيرين منكم. كان أبي يقول إن الله يخلق أناساً جميلين في ساعات وعيه، ولكنه يؤخذ بالجميلين أحياناً، فتدعبل يداه دونما تركيز بشراً مثلكم. ولولاكم لما كان للعديد من الكتّاب والممثلين والمخرجين رزق يقتاتون به: بكم تعمر مسلسلات التلفزيون، تسليةً للنسوة والعجائز في الأمسيات الطويلة الفارغة. إنكم عنصر أساسي في المجتمع. فلا تقلقوا.

أنا الذي سأقلق. ولو كانت نجوى حية بين يدي، لقلقت هي أيضاً، كما كان من شأنها دائماً أن تقلق. كما تقلق الزهرة البرية حين تعصف الرياح حولها. كما تقلق الظبية حين ترى الصيادين يطاردونها في سياراتهم الطائلة. نجوى، في ركضها إليّ، كانت دائماً كالهارب من البنادق المصوَّبة. والساعات التي كنا نقضيها معاً ـ أم كانت تلك مجرد لحظات طائرة؟ ـ كانت ملأى بلهاث الذعر، الذي يسبق نسيان النشوة ـ ذلك البحران الأقرب إلى الغوص في العدم، المؤدي إلى تعميق النشوة، فالنسيان، فالبحران. . . وفجأة: يعود الوعي: وجه قبيح، تدلّت فيه

الشفة السفلى غليظةً يسيل منها اللعاب، وجحظت العينان كمصباحين بذيئين وهما تتأملانها عارية، معرّضةً للتجريح والتهشيم. ولكن نجوى كانت جريئة، رغم الخوف. تضم أصابع كل يد بقوة إلى كفها، وتنتصب في وجه الذئاب المكشرة عن نيوبها. «أقسم أنك سليلة حمدي سويلم!» كنت أقول لها. فتضحك وتنطلق في سيارتها انطلاق الفارس على أصيلته.

ونجوى نفسها كانت كالفرس الأصيلة. كان دمها كبرياء سائلة تجري في عروقها - لا بعنقها الطويل وشعرها السارح في الفضاء فحسب: لا بساقيها المستدقّتين، وفخذيها المشدودين كالوتر فحسب - بل بحركتها المجنحة، المارقة كالسهم نحو غايتها. وإذا كانت غايتها الموت، فليكن لها ذلك! هذه المحجّلة الغامضة سليلة محاربين عنيدين، قد يخيفهم الموت، ولكنهم يقبلون عليه، فيهزمونه: إنهم يهزمونه، بكبرياء الاختيار، بصرخة اللذة التي تضج فيها أصوات أسلاف لهم حاربوا مثلهم من أجل إرادة عاتية لا تفارقهم.

أترون كيف تتيه حساباتكم وتنبو عن مقاصدكم، رغم كل ما رتبتم له من استجواب وتقصي؟ أأنا أقتل الظبية، والفرس الأصيلة؟ أأنا من يطلق النار على التي جسدت لي رؤى أسلافي؟

ممكن، ممكن. مهما أقل، فان في النفس مناطق مظلمة لا أستطيع النفاذ إليها بعد. ألعلني كنت أحاول قتل نفسي على نحو اسطوري لا افهمه؟ هذه نجوى تأتيني بين الحين والحين وتقول: «أكتب عن امرأة غريبة، عجائبية، لا يستطيع الواقع الضيّق استيعابها. أجعل منها ضدّاً لكل تفاهة اجتماعية. أجعل منها مخلوقاً إشكالياً يخلق نفسه مرة واحدة لن تتكرر. حبها وحشي والهي، معاً. محي وقاتل، معاً.» فاذا ضحكتُ أنا لفكرة هذه الحسناء الرومانسية الحُلُمية التي عذّبت أجيالاً من الشعراء فيما مضى بإيماءاتها السرابية لهم، قالت نجوى: «ومن قال إنك لست واحداً من هؤلاء الشعراء؟»

قلت: «الشعراء الملعونين؟»

قالت: «في عصر حلت اللعنة فيه على كل شيء، لم لا تحل أيضاً

على الشعراء - أو واحد منهم على الأقل؟»

ألعلني أخفقت في تصوير امرأة كالتي أرادت نجوى، في رواياتي، فجعلتُها هي البطلة، هي الغريبة العجائبية، هي الوحشية والإلهية، المحيية والقاتلة، ثم ختمت حياتها كما اختم رواية انتهيت منها، لأحفظ روعتها بين دفتي كتاب، لئلا يتسرب إليها مع الزمن ما يأخذ منها، ما يحيل ألوانها، ويلوث زهوها؟

أراني أنبهكم إلى نواح لم تكن في حسبانكم، وأعينكم على التشبث برأيكم. لا بأس - أنا لست أول من صاح في زنزانة، وضرب رأسه بجدران أربعة. أنا لست أول من أصر الآخرون على إساءة فهمه - ولن أكون الأخير. ولا تحسبوا أنني أريد الإيحاء بأنني ضحية عماكم، أو جهلكم، أو قصوركم الذهني. لا، حاشاكم. أنا لست ضحية قطعاً. أنا ذاهب على قدمّي إلى حيث شفا الهاوية، وعيناي مفتوحتان. وتريان. كل شيء.

[١١]

أكاد أنكر أنني قلت ما قلت، لأن الأفكار التي تملأ رأسي الآن تختلف كثيراً عن تلك الهلوسات الصغيرة الغارقة في الماضي، وذلك لكيما أقدم تفسيراً واحداً يمكن أن أرضى عنه. الحاضر غير الماضي، غيره تماماً، لا صلة، من أي نوع، بين الاثنين. والشبه الذي تزعمه عمتي نصرت بين أخي صفاء وجدّي مجرد وهم، لأن الصورة الوحيدة لجدي، وهي صورة رديئة أقرب إلى القبح ولا تكاد ترى قسماتها، تظهر فروقاً أكثر مما تظهر تشابهاً. لكن عمتي نصرت تؤكد أن الشبه يصل حدود التطابق. «الخالق الناطق! كأنني أرى المرحوم أبي، ما راح ولا جاء، هو. . هو.» وإذا أبدى أحد منا شكه بكلمة، بابتسامة، فعندئذ تغضب العمة نصرت ويهدر صوتها: «الله لا يعمي العيون فقط، بل ويعمي القلوب أيضاً.» ويتغير صوتها قليلاً: «انظروا إلى فتحة العين، إلى الشفة السفلى. . . أما إذا ضحك، إذا نطق، فإنه أبي، رحمه الله، بلحمه ودمه». كان ذلك يجري في وقت بعيد، ولأنه تكرر مرات كثيرة أصبح يثير الملل والشفقة. فعمتي لا تريد أبداً أن تتخلى عن تاريخ العائلة وشرفها، وتعتبر أن الشبه في الملامح ليس معناه امتداد العائلة فقط بل ويعني لها أيضاً أن كل ما حاولت الحفاظ عليه وحمايته لا يزال أمامها، حياً يرزق.

صفاء وجدّي متشابهان. . مختلفان. . إن ذلك لا يهم أحداً، ولن يغيّر شيئاً. حتى صفاء، في ساعات معينة، وأمام عمتي بالذات، حين يؤكد هذا الشبه، لا يقصد أكثر من الدعابة أو تحريك النار وزحزحة الصخرة. فعمتي الحذرة المتحصنة وراء ذلك الصمت المدوّي، تنظر بعدم اهتمام إلى معظم ما يجري. إلا إذا اقترب أحد من تاريخ العائلة. عندئذ تعتبر نفسها الوحيدة التي تمتلك شرعية من نوع ما في اسم العائلة وتاريخها وشرفها، وتعتبر نفسها أيضاً القادرة على الدفاع، لأنها وحدها تمتلك الحقيقة. . . أما نجيب، أبي، فقد فقد هذه الشرعية وفقد القدرة على

حماية شرف العائلة وتاريخها منذ أن وافق على زواج أختي عدوية من ابن غطاس «الذي كان أبوه سقّاءً عند جدّي»، كما تقول عمتي نصرت. أما لماذا تزوجت أختي من نعيم غطاس وكيف وافق أبي على ذلك، فإن لذلك قصة تطول. ثم إن أحداً من عائلة سلّوم لا يريد أن يفتح جرحاً قديماً مرت عليه سنوات كثيرة!

عمتي نصرت اذن حجر الزاوية. هي التي أرادت ذلك ولم ينازعها أحد. صحيح إن الأمر لم يتم بهذه السهولة، لكن النزاع حوله لم يطل، لأن جنوناً من نوع ما سيطر على أبي في مرحلة من حياته، ونتيجةً لهذا الجنون لم يتخل عن تقاليد العائلة فقط، بل وعادى الكثيرين وباع، بثمن زهيد، بقايا الأرض الزراعية التي كانت له في القرية. «كل ما أريده من الأرض مجرد قبر. وحتى هذا القبر أريده بعيداً عن عائلة سلوم وعن قرية المطلة». أما لماذا حصل ذلك التحول ومتى، فإن كل واحد يرويه على طريقته. عمتي نصرت تؤكد أن عفريتاًتلبس نجيب وحمله أيام المجاعة لأن يترك المطلة. وأبي يقول شيئاً آخر. «الناس في المطلة وغيرها من القرى يموتون. . لا نجاة من الموت إلا بالهرب. هربنا. ومن مكان إلى مكان، حتى انتهى بنا الدهر إلى عمورية. والانسان العاقل يبحث عن مصلحته. ومصلحتنا كانت هنا. ومنذ ذلك اليوم عشنا والله رزقنا. وخلّينا المطلة لأهل المطلة. . .» ومع مرور الزمن، تنوّعت هذه الصيغة من العلاقات والأدوار. فعمتي، التي لم تستطع أن تتصور مفارقة المطلة والعيش في مكان آخر، افترضت أن الحياة خارجها لا بد أن تكون مؤقتة وسترجع إليها ذات يوم. لكنها لم ترجع. ولم تتخلَّ عن نصيبها من الأرض التي ورثتها عن أبيها. وفي نطاق وهم من نوع ما ظلت روحها في المطلة، قريبة من السوالمة الأوائل، ولم تكف عن الحديث بأنها عائدة إلى هناك في وقت قريب. ولكن لكونها الأخت الكبرى لأبي، ولأن أمهما، جدتي، ماتت في وقت مبكر، افترضت أن مسؤوليتها هي أن تبقى إلى جانب أخيها الأصغر وأن ترعاه!

ليس ما أرويه الآن جزءاً من تاريخ آل سلوم. لا، فأنا لم أقترب من هذا التاريخ. كل ما أردت أن أقوله هو أن جنوناً من نوع ما سيطر على

العائلة، وجعلها على هذه الشاكلة وملأها بالفوضى والانتظار، وانعكس لا على الفترات الماضية وحدها، وإنما استمر ونما، ثم تشعب في طرق ومتاهات أصبحت مثل شبكة أطبقت على عشر سمكات.

عمتي نصرت مسؤولة؟ أمي؟ أبي؟ أخواي؟ صفاء وأدهم وأخواتي الثلاث - لماذا خلقوا على هذا الشاكلة؟ عمتي تتحدث دون تعب عن الشبه، عن الامتداد الذي لا ينقطع لدماء آل سلوم. وأنا أرى أن الاختلاف بين فرد وآخر، بين جيل وآخر، ليس القانون الذي يحكم هذه العائلة التعيسة فقط، بل القانون الوحيد، ولا شيء غيره. فتحة العين. الشفة السفلى. رنة الصوت، وأي شيء آخر في صفاء، في أدهم، في صبا، لا يختلف عن أبي وأجدادي فقط.. إنه يناقضه! أأبالغ؟ أأسرف في الحديث عن هذا القانون، قانون الاختلاف، لكي أفسر ما يحدث الآن؟

ليس نجيب سلوم وحده الذي غادر القرية ليعيش في المدينة. ففي أعقاب الجوع والموت، وخوفاً من الأيام الآتية، لم يبق إنسان في مكانه. كانت الدنيا، في تلك الفترة التي رافقت وأعقبت الحرب العالمية الأولى، تموج بالحركة والانتقال، والبحث عن الأمن ولقمة العيش. لا يهم ما تقوله عمتي نصرت، وأية تفسيرات تقدمها. لم يبق انسان لم يركبه عفريت من نوع أو آخر، وهذا العفريت هو الذي يقود الخطى، ويدفع الظهر، ليس حباً في الانتقال والتغيير بل محاولةً للوقوف في وجه الموت. وهكذا اندفعت موجة وراء أخرى إلى المدينة طلباً للحياة أيًا كانت.

عمورية ذلك الوقت لم تكن مثل عمورية هذه الأيام. كل شيء اختلف. وأبي الذي لا يحب الحديث عن الأيام القديمة، ولا يعتبر أن بطولة من أي نوع دفعته إلى هذه المغامرة والمجيء إلى المدينة، كان حين يضطر إلى الحديث عن تلك الأيام، يكتفي بكلمات قليلة: «لا تنظروا إلى المدينة الآن. ما ترونه الآن لا يمت إلى المدينة التي كانت في تلك الأيام. حتى أخلاق الناس تغيرت.» فإذا حاصرته الأسئلة وحدّقت به العيون تريد مزيداً من المعلومات والايضاح، تعكر وجهه وانتشر في الجو حزن غامض، وأتت كلماته بنبرة عصبية: «كانت الحياة عذاباً... عذاباً لا يرحم،

هكذا كانت في كل مكان. في المطلة، في غسرين وتغاريت وعين فجار، هنا، في كل مكان. حتى الذين سافروا، الذين استدانوا وباعوا كل ما فوقهم وتحتهم لكي يؤمنوا ثمن تذكرة الباخرة، انقطعت أخبارهم. وكثيرون منهم ماتوا. غرقوا في البحر، ماتوا من الجوع، ماتوا من القهر. والذين لم يتيسر لهم ثمن بطاقة الباخرة وظلوا هنا، كانوا ينتظرون الموت في كل لحظة. كانت أياماً صعبة. وراحت.»

ومثل كل الذين ينزلون إلى المدينة من القرى، نزل أبي نجيب سلوم، وفي محاولة للبقاء ومقاومة الموت لم يترك وسيلة إلا ولجأ إليها، ورغم الخوف الذي كان يحدد حركة الناس ويدفعهم للالتصاق والتقارب، في السكنى والعمل وتبادل الهموم، اضافة إلى كلمات التشجيع الوهمية التي يعزُّون بها أنفسهم، فقد كان في نجيب سلوم شيء يجعله مختلفاً عن الآخرين. كان يريد أن يتخلص من الماضي، من ذلك الثقل الذي يجعله عاجزاً. ولذلك، وبعد أن سكن لفترة قصيرة قريباً من الذين جاؤوا من المطلة، وجد نفسه يرحل مرة أخرى في المدينة. صحيح أن في هذا الرجل شيئاً انفجارياً غير قابل للتفسير. لكن فيه أيضاً شيئاً يتوافق مع رغبات غامضة كانت تموج في صدره. كان يريد أن يبدأ من جديد. ولذلك لم يكن يبالي في أن يفعل أي شيء.

إني أكرر: لا أريد أن أروي تاريخ عائلة سلوم. فهذه العائلة المشؤومة، الملقاة في هذا المكان من العالم، رمز للتعاسات كلها التي يعيش فيها الناس. نجيب سلوم ليس أكثر من رقم، مجرد رقم في هذا العالم الشديد الاضطراب والفوضى. كان يقول إن الثور الذي يحمل الأرض على قرنه لم يتعب فقط وإنما أصيب بالهرم، ولذلك فإن هذا الثور الذي يحمل الأرض أصبح عاجزاً عن احتمال هذا الثقل، وهو ينقلها من قرن إلى آخر دون توقف وبسرعة خارقة، قبل أن تهوي إلى الجحيم. عمتي نصرت كانت تقول شيئاً مختلفاً. أما أنا، الذي كنت أرقب، أتابع، أتأمل، فأحسست بأنني أعرف السبب الحقيقي. لم استطع أن أقول كل شيء لأبي، لعمتي، حتى لنفسي. لم استطع أن أقول كل شيء بصوت عال.

لكنني اصبحت متأكداً أن العالم الذي نعيش فيه، الأرض التي نحن فوقها، تهتز، ترتج، وتوشك أن تنهار. وخلال فترة قصيرة، كنت أقول، سوف نشهد أموراً عجيبة.

لكي أزيل أي احتمال للخطأ أو سوء الفهم يجب أن أبادر إلى القول إن عائلة جدّي، سليم أدهم السلوم، كانت عائلة بسيطة، أقرب إلى الفقر، ولن يفكر أحد أن يكتب عنها شيئاً ذا بال. كما أنني لا أنوي الآن أن أكتب تاريخ هذه العائلة، لأن فكرة من هذا النوع، لو تحمست لها، لكان معناها الضياع في متاهات لا نهاية لها، والاتصال بمجموعات من الناس، معظمهم من المسنين، وهؤلاء أقرب إلى الخَرَف ويملأهم الحقد، وتسكنهم حكايات الثأر. ولذلك سيملأون تاريخ العائلة بالترّهات والأكاذيب، الأمر الذي يجعل الفكرة أقرب إلى العبث. ولست مجنوناً بالمقدار الذي يورطني في كتابة تاريخ عائلة ليست أكثر من رقم واحد من مجموعة هائلة من الأرقام. ولا يمكن أن تكون أكثر من ذلك. إذن لماذا أحوم الآن حول مجموعة من الوقائع الصغيرة والأوهام والذكريات أملاً في استعادة حياة هؤلاء الذين ذهبوا؟ لماذ أعطي أحداثاً لا يكاد أحد يتذكرها، هذه الأهمية المبالغ بها؟ ولو أسقطت من حساباتي أهمية العائلة، وأحقاد الآخرين، والمغزى الذي قد يشكل نمطاً مفهوماً لحياة تلك الفترة، فهل في تاريخ عائلة سليم سلوم، وجده الأول حمدي سويلم، شيء يستحق أن يروى للآخرين؟ هل ثمة من حكمة أو مغزى في استعراض هذه المجموعة من المهووسين والأبطال والقتلة والمدّعين، والمساكين أيضاً؟ ولكن، مع ذلك كله، اعتقد أن هناك قضية تستحق التوقف والتأمل. لماذا كانت عائلة سلوم بهذا المقدار من التعاسة وسوء الحظ؟

هذه القضية شغلتني منذ وقت مبكر، وعمتي نصرت لم تتعب يوماً من تأكيد ذلك، حتى غدت كلماتها، لفرط ما رددتها، مثل لعنة تطاردنا دون توقف: «جدكم الأول حمدي سويلم تآخى مع الجن والعفاريت وتزوج منهم، وبدل أن يأتيه أولاد وبنات جاءه عفاريت. وإذا كان ذلك الجد قد عاش ودوّخ الدنيا فإن العفاريت الذين ولدوا له داخوا في هذه الدنيا ولم يفعلوا شيئاً يرفع الرأس.»

كان أولئك «الأفذاذ» الذين ولدوا لحمدي سويلم، ثم من خلفوا من اولاد وأحفاد، يحتاجون إلى مجموعة من الشروط لكي يعبّروا عن العبقرية الكامنة فيهم، لكن هذه الشروط لم تتوفر قط، ولذلك هاموا على وجوههم في هذا العالم، ينتقلون من مكان إلى مكان، حاملين مع أحزانهم وهمومهم أحزان العالم وهمومه. حتى إذا وصلوا إلى عمورية، وكان العالم في ذروة بؤسه وتعاسته وجنونه، جُنّوا، وما زلوا كذلك!

لقد حصل شيء في هذا العالم فغيّره وغير الناس. لم يكن هكذا ولم يكن الناس بهذه التعاسة، لكن هذه التعاسة لن تستمر ولن تطول.

جدّي الكبير، رئيف، وهو الذي اعتبره عن حق مؤسس العائلة. لا أحد من الأحياء رآه، أو يذكره، لأن بيننا وبين موته ما يزيد على المئة وعشرة أعوام. وعائلتنا لا تعمر.. الكبير الكبير يبلغ الستين. رئيف مات في الثانية والخمسين ولا أحد يقول كيف مات. والذين تلوا رئيف سلوم ماتوا أيضاً صغاراً، أو ماتوا قبل أن يشبعوا من الحياة. فحفيده المشهور، اي جدي، مات مقتولاً. الجميع يعرف ذلك. وعمتي نصرت تروي ذلك بصوت عالٍ مليء بالفخر: سليم سلوم مات يوم أراد الأتراك أن يحلقوا نصف لحية رؤوف الزين. قال لهم: «أنا رجل.. وأعرف معنى الرجولة والشرف. أن تحلق نصف اللحية إهانة. ورؤوف الزين أكبر من هذه الإهانة. ولن أسمح لكم، ودمي بيني وبينكم...» بصق في وجوه الجندرمة، شتم المختار الجديد. لكن سليم سلوم مات فجأة في اليوم التالي. وبقيت عمتي تصر على أن الأتراك سمموه. أما أمي فقد قالت ذات يوم إن الموت يمكن أن يحصل أيضاً نتيجة القهر. وسليم سلوم مات قهراً. وأبوه أدهم قتل رئيس الجندرمة وهرب إلى الغابة. لم يره أحد، ولم يسمع عنه أحد شيئاً. لكن الكثيرين يؤكدون أن لعنة تطارد عائلة سلوم، ويستدلون على ذلك من أمور كثيرة: الجد الأول دوّخ العالم وخلق أعداء لا يستطيع رجل بمفرده أن يخلق بعددهم. وحفيده أدهم كان يبول في الشارع، ويتعمّد أن يفعل ذلك بوجه خاص أمام الجندرمة والمسؤولين، وهو يقول: «هذا رأيي فيكم». والأخرون فعلوا أشياء كثيرة، منها ما هو نبيل ومنها - ولأقلها بصراحة - ما هو مشين تماماً.

مرة أخرى اؤكد: لا، لن أروي تاريخ عائلة سلوم. إن ذلك أبعد ما يكون عن ذهني. لكن ما يثير الحيرة ويسقط في اليد هو أنه لا يمكن تفسير ما يجري الآن دون البحث في ذاكرة الزمان، لعل بصيصاً من الضوء ينير الجوانب المعتمة في حياة هذه المجموعة من البشر، ويجعل من الممكن فهم هذا الغموض الذي يملأ كل شيء الآن. يستفزني هذا الغموض بين الحين والآخر، وتبقى المطاردة قائمة بيننا، إلى أن نجد سلاماً من نوع ما. قد يكون هذا السلام بالموت يطوينا، أو بأن اكتشف سر هذه اللعنة التي سببت دماراً لعائلة سلوم ولاحقتهم عشرات السنين دون توقف.

ومع ذلك فبأي كبرياء كان أبي يذكر أباه، وجده، وجده الأكبر، إلى أن يبلغ الجد الأول، وكأنه يبلغ بذاكرته المعتمة آدم وأول الخليقة ـ حمدي سويلم. كان يسلسل الكبرياء والقهر، الشموخ والجنون، على نحو تخالفه فيه العمة نصرت، لأنها ما عاد يهمها أن تجد في أسلافها مصدر الكبرياء، بل بداية اللعنة. أما أبي، فكان يتقلب في نظرته إلى اسلافه مع تقلب الشقاء والحب في حياته. آه، حمدي سويلم ـ يقول أبي ـ حمدي سويلم، أول السوالمة الكبار. . . كان عملاقاً من زمن مضى، عاش على عشرة أمتارٍ مربعة من الأرض عيشة أمير يملك الدساكر والبساتين. كان الأتراك يرسلون إليه من عمورية كل اسبوع سرية من الشرطة على البغال، ولا يعلمون إن كانت ستعود السرية سالمة، أو يتحوّل أفرادها إلى عشيرة أخرى يحكمها حمدي السويلم، فيعلّمهم ركب الخيل، ويرسلهم كالزنابير في وجوه الأغوات والمخاتير وعبيد السلطان العثماني. وهل كان زواج يتم في ربوع الجبل، من غسرين إلى الفارعة إلى قرى عمورية كلها، إلا بموافقة حمدي السويلم؟ وكم امرأة تزوج هذا المتمرد، الحامل سيفه في وجه الظلم، وحصانه يخبّ به من قرية إلى قرية، من دار إلى دار، أميراً لا تعترف به السلطة، ولكنها تتفاهم معه سراً بين الحين والحين لكي لا يفضح عجزها؟ اتعلم، يقول أبي، ماذا كان يقول جدي المرحوم أدهم عن جده هذا؟ كان يقول إن نصف القرى التي انبثقت على سفوح الجبل في السبعين سنة التي سبقت سقوط السلطان عبد الحميد، بناها أبناء حمدي

سويلم وأحفاده، المعترف بهم وغير المعترف بهم. اسأل عنه شيوخ عين فجار، والمطلة. . . ولكنه بقدر ما أحب من نساء، فانه لم يستنكف عن سفك الدماء. . . كل من وقف في وجهه، أو رفض له رغبة، ذاق حد سيفه. . . ورئيف ابنه، جرع مرارات الانتقام حين رأى أخوته الأشقاء وغير الأشقاء، وأولاد أعمامه، بعد موت أبيه يتساقطون صرعى في حقول القرى وعلى صخور الجبل تحت خناجر المنتقمين. وكان على رئيف حمدي سلوم ـ وهو الذي يبدو أنه حرّف اسم العائلة، كأنه أول الأمر يتنصل بذلك من السوالمة الآخرين، ان يتحلى بأقصى الحكمة، والعقل، والصبر، لكي يستطيع أن يقف ولو زمناً بوجه الاغتيالات التي راحت تمحق السوالمة، وتدفع بعضهم إلى الهجرة من قرية إلى قرية، أو إلى رد الثأر بالثأر من جديد. لكنه لم يستطع ذلك طويلاً. فحين عاد إلى القتل والتمرد وملاحقة الأغاوات وممثلي السلطة، قالوا روح حمدي سويلم حلّت به ولن ترتاح إلى أن يقلب الدنيا! أما العمة نصرت فكانت تهز برأسها المؤطر بالسواد، وتقول بلهجتها المطلّية القديمة: «يا حمدي يا سويلم، يا بزرة الشيطان يا حمدي! لم يزرع بيده يوماً شجرة تفاح أو دالية عنب. كان تائهاً على وجهه في وديان الجبل، رافعاً سيفه بيد، وذكره بيد. وتجابهه عائلات الفلاحين أينما ذهب، فإذا سلمت من يده الواحدة، لم تسلم من يده الأخرى. آخ يا حمدي، يا أول الملاعين!»

فاسألها: «ومن آخر الملاعين؟»

فتنظر إلَيّ بعينيها الواسعتين الجاحظتين ـ وأنا أعرف أنها لا ترى بهما أكثر من مجرد أشباح:

«أنت يا علاء! أنت الذي جئت على شاكلة أبيك. صفاء جاء على أبي، وانقذه الله من وصمة حمدي سويلم. لأن أبي ـ آه يا علاء، لن تدري أي ولي، أي طاهر، أي قديس كان أبي. على يديه انتعشت المطلة. بجهوده نبت الزرع على الصخر، وانحنت الأشجار بثقل أثمارها. أما نجيب. . . أوه! ما الفائدة الآن. لا زواجه علّمه، ولا أخته أفادته. جاء عفريتاً راكباً رأسه، وباع كرومنا في المطلة، وجاء إلى عمورية غصباً عنا

جميعاً. ورزق المهابيل على المجانين! في أربع أو خمس سنوات كان من أثرياء البلد! طبعاً أنا التي مهدت له ذلك، وزوّجته من أمك ـ رحمها الله. . .»

ـ تترحمين عليها الآن، عجائب!

ـ لا تجوز على الميت إلا الرحمة يا بني. ولكن انتبه إلى نفسك يا حبيبي يا علاء. . . لا تكن مثل حمدي سويلم، ولا تكن مثل أبيك. . . في بيتنا شياطين. اسمع همسهم في الليل. أنا لا أخاف على صبوة، هناك الآن من يعتني بها. أما أنت. . . آخ، لو تترك عمورية وتعود بي إلى المطلة. . . هل انتهيتم من تسجيل أرضي باسمك؟ أدهم لا يريدها، وصفاء يستطيع أن يشتري المطلة وفلاحيها كلهم. أما أنت؟ ما الذي تفعله كل مساء وأنت منكبٌ على المائدة؟ أتكتب؟ ماذا تكتب مما يحتاج ليلة بعد ليلة من حك القلم على الورقة؟ هل تسمع أنت أيضاً همس الشياطين في الليالي؟

وتسرح عمتي إلى ما لا نهاية، ولا يهمها أنني أكون قد خرجت من غرفتها، وانصرفت إلى مكتبتي، ورأسي تارة مليء بأصداء السوالمة، وتارة بأصداء عمورية اليوم، وتارة أخرى بأصداء العشق التي لم تكن أقل ترداداً لتلك اللعنة التي لا أفهمها.

[١٢]

رأيت عمورية تتسع في ربع القرن الأخير اتساعاً مذهلاً، فكأنني كلما تقدمت في السن (مهلاً! أنا في أوائل أربعيناتي فقط)، ازدادت المدينة طولاً وعرضاً، وفوضى. من مئة ألف نسمة في أوائل العشرينات، إلى نصف مليون بعد الحرب العالمية الثانية (هكذا تقول الدراسات السكانية التي قرأتها)ـ إلى قرابة ثلاثة ملايين نسمة اليوم. والريف ينزف في اتجاهها دونما رأفة. المطلة، غسرين، عين فجار، العريشة، الطيبة، المحمودية ـ هذه إنما هي القرى القريبة فقط التي غذّى أهلوها الجبليون عمورية ـ كما فعل أبي وأخوته ذات يوم ـ حتى لم يبق في القرى إلا العاجزون عن الهجرة. هذا فضلاً عن الذين هاجروا إلى أمريكا وغيرها. ولكن شيئاً غريباً كان يحدث في تلك الأثناء، جعلت التفت إليه في السنوات القليلة الماضية. كادت القرى تفرغ من فلاحيها، وإذا هي تعمر شيئاً فشيئاً بأناس أغراب، لا يعرف المرء بالضبط من أين يأتون. الطبيعة تكره الفراغ ـ ولكنها تملأ الفراغ حسب أهوائها هي، لا أهوائك أنت. حركة عشوائية تموج في البلد كله: كأنما نحن في أول مرحلة من مراحل تاريخ قادم بالعجائب ـ أو في نهاية مرحلة نراها تبتعد في أحشاء أفق بعيد، تحت أبصارنا.

وهذا أمر مهم. بل في غاية الأهمية. تتزلزل الأرض، فتتصدع. وتنهار جبال وتصعد أودية. وتتشكل الطبيعة من جديد على نحو لا نستطيع التكهن به، مع كل علمنا وإحصائياتنا. والنفس البشرية؟ آه، إنها هي أيضاً تتزلزل، وتتصدع، وتنهار فيها جبال وتصعد أودية، وتتشكل تضاريسها على نحو يتحدانا جميعاً. من قال إن النفس ثابتة، وإن أعماقها مستقرة؟ وأنا، وأبي وأخوتي، ونجوى، وكل الذين عرفتهم والذين لم أعرفهم، أقاربي وأجدادي القرويون، وأسلافي العشائريون ـ وأهل الأرياف الذين انتزعتهم يد الزمن، وفرّقتهم، وأعادت جمعهم، ثم

مزّقتهم، وأعادت تركيبهم - اننا كلّنا نحيا عقابيل الزلازل. سهولنا أضحت جبالاً، كرومنا أضحت مصانع، خيولنا تحولت إلى حافلات مكتظة حارقة، وحكايانا القديمة ما عدنا نجدها إلا في أطروحات دارسين ينالون بها درجاتهم الجامعية، ثم ينسونها على رفوف تراكم عليها الغبار.

توصلت في مرحلة من المراحل إلى أن عمورية هي التي خلقت فيّ وفي الآخرين هذا المقدار الهائل من القلق والشك. فهذه المدينة التي تربض على سفح الجبل وتمد نفسها برخاوة قاتلة في أنحاء عديدة حتى البحر، وتحرص على أن تغلق ذهنياً على نفسها الأبواب بعد غياب الشمس، هذه المدينة التي تتحدث بصوت عال عن الفضيلة، وتعطي الفضيلة طابعاً عملياً يتحدد بمقدار الربح والخسارة، وتفرح بخجل كأنها تقترف إثماً، وتحزن بفجور، وتنظر بلا مبالاة، وبعض الأحيان بسخرية، إلى الكثير مما يجري، كأنه لا يعنيها. هذه المدينة بفجاجتها ظاهرياً ولا مبالاتها باطنياً، والقذارة المعنوية التي تختزنها، وتلك القيم السائدة فيها، جعلتني في مرحلة من المراحل اعتبرها مسؤولة عن حالة الضيق وبالتالي عدم القدرة على التكيف مع ما يجري، وجعلتني أحس أن الجبل اللابد فوقها، وكأنه الرأس الأقرع، والخضرة المغبرّة الكامدة التي تهمد فوق أشجارها، ثم الحجارة الكلسية الرخوة التي ترتفع مدماكاً فوق آخر لتشكل بيوتها، هي التي تجعل الناس هكذا، إذ لا يعقل أن يكون الناس على هذا القدر الهائل من الرخاوة والمداجاة وفساد النفس لولا الريح النتنة التي تهب على عمورية معظم أيام السنة. كما لا يُعقل أن يكون الناس هكذا لولا أن المدينة لا تكفّ عن ترويضهم وإعادة تكوينهم باستمرار، لكي يصبحوا في النهاية هذه الابتسامات البلهاء التي تفترس الوجوه، دونما معنى، وتبقى بواطنهم أسراراً لا تُخترق.

لو لم يكن الأمر كذلك، كيف أفسر هذه القوة الخارقة التي تمتلكها عمورية، والتي تحيل الناس، خلال فترة قصيرة، إلى مخلوقات مشوهة عاجزة، أقرب إلى الحيوانات المدجنّة؟ كيف أفسر هذا التشابه الذي يزداد ويترسّخ بين أهل عمورية القدامى، وبين الذين جاؤوا من الأرياف؟ إن

للمدن أسواراً، وهذه الأسوار ترفض أن تسلّم مفاتيحها بسهولة للغرباء والعابرين، أو للذين يبحثون عن الطرافة أو الصدفة العابرة. وإذا كان لكل مدينة أسوار ومفاتيح غير ميسّرة، فإن مدينة كعمورية غارقة في القدم، محملة بالتاريخ، تضيع فيها الأسرار، وتتصاعد فيها الأوهام إزاء الذين لا تسلّم نفسها لهم بسهولة.

هكذا كنت أفكر. وتوصلت بنتيجة هذا التفكير إلى نوع من التوهم بأنني أقوى على تفسير بعض الأحداثِ والظواهر. لكن تفسيراتي لم تكن ثابتة إلى الدرجة التي أثق بها كل الوثوق أو اعتبرها طريقي للخلاص. فإن تكون عمورية جبلية لا يعني تميزاً لها، لأن هناك مدناً أخرى كثيرة تنهض فوق الجبال: فدمشق وعمان والقدس والجزائر، ومدن أخرى كثيرة غيرها، تكاد تشبه عمورية من حيث الموقع. وأن تهب عليها الرياح في معظم أيام السنة، فإن أكثر مدن الشرق، المطوقة بالصحارى والمياه، ونتيجة الحرارة والبرودة، تكون عرضة للتيارات الهوائية، ومع التيارات والرياح تحمل الصحارى «خيراتها» إلى هذه المدن فتجعلها تغتسل في ذرات الغبار ليل نهار، وتحيل لونها إلى صفرة، ثم لا تلبث هذه الصفرة أن تكمد تدريجياً بفعل القذارة والأجساد المتفسخة... أما الحجارة، فأن تكون من الكلس الهش أو الغرانيت الصلد فلا يعني شيئاً في قيام مدينة من المدن. هل كانت عمورية تختلف كثيراً لو قامت في سهل غريني من آجر مفخور أو مجفف في الشمس؟.

هكذا كانت تتوازى في ذهني الصور والتفسيرات. ما أكون قد حسمته في الليلة الفائتة، وكنت شديد الاقتناع في أنه يفسّر الظاهرة، لا ألبث أن اكتشف ضعفه. وبعض الأحيان نهايته وسقوطه. وأبدأ مجدّداً البحث في أسباب أخرى تفسر الظاهرة. طبعاً للنفط أثره العميق. اكتشفه الأمريكيون، وعلموا الناس الخطيئة، بل الخطايا السبع كلها.

ان تكون عمورية واقفة كالصخرة، في وجه الصحراء، متحصّنة بالجبل الأول ثم بمجموعة الجبال التي تليه، ان تكون مغبّرة مليئة بالذباب، وان تغلق أبواب عقلها عند غياب الشمس، وتنام قلقة منتظرة،

ويتطلع أناسها بتساؤل مستمر إلى ما يجري وقد أعياهم الترقب وأمضّهم الانتظار يجعل منها شيئاً متفرّداً. ربما. ولكنها بهذا الوجه المتفرد، المليء بالندوب، بمقدار ما هي واحدة، هي الكل أيضاً... هي موران والعامرية وغسرين والطيبة وعشرات المدن والقرى الأخرى الممتدة، كالعقود الرخوة، على أطراف البحر، أو النائمة في المستنقعات الداخلية.

إذن.. ليست عمورية المدينة، الحجارة والهواء والخضرة الكامدة، ما يولد الحالة التي أعيشها ويعيشها الآخرون. عمورية، ككل المدن الأخرى في العالم، محايدة في قراراتها، لا عواطف ولا مواقف.. الناس، البشر الذين يعيشون فيها هم الذين يعطونها من أنفسهم شيئاً تتميز به عن المدن الأخرى، وهم نيابة عنها يتخذون القرارات، ويصنعون المواقف، ويطلقون العاطفة - ويطمرونها.

عمورية الآن غير عمورية حين تركتها قبل خمس وعشرين سنة، وسافرت لمواصلة دراستي، ولو أن فيها من الثوابت ما يجعل تغيرها بطيئاً صعباً. ولكن البشر فيها تغيروا بأسرع مما تغيرت الأماكن.

كانت عمورية حين قررتُ (أو قرر لي أبي) في تلك الظروف أن أغادرها، على درجة كبيرة من الالفة، رغم فقرها والمصاعب الكثيرة التي كانت تعاني منها وتطحنها. كانت عمورية آنذاك تدرك ما تريد. وهذا ما جعلها أيامئذ متألقة، مصممة، وشجاعة.

صحيح أن الفترة التي سبقت رحيلي كانت مليئة بالألم والمعاناة، وكانت مليئة بالصرخات المكتومة أواخر الليل. لكن تلك كانت صرخات الذين يحاولون شق الطريق، الذين يريدون أن يرفعوا عن صدورهم كابوساً ثقيلاً امتد طوال عشرات السنين السابقة.

كان يفترض أن أعاند أكثر. أن أرفض أقتراحات أبي وإغراءه، وأن أبقى في عمورية. لكن الأمور حصلت بسرعة، وفي جو نفسي مشحون. ولم يفصل بين اقتراح الفكرة واتخاذ القرار، سوى ثلاثة أسابيع. أبي وحده الذي فكر عني واتخذ القرار. كنت في عالم آخر، أفكر وأتصرف بطريقة غير طريقته، لكن الأحداث السريعة، والتي شابهت الزلزال، لم

تدع أحداً يفكر برأسه، ولم تدع أحداً يتخذ القرار الذي لا يندم عليه فيما بعد. حصلت الأمور بسرعة خاطفة، وامتلأ صدري بالمرارة والحقد على أبي لأنه دفعني هكذا من ظهري، وطلب إلي أن أسرع في مغادرة عمورية قبل أن تداهم بيتنا الشرطة مرة أخرى. كان من الممكن أن تحصل الأمور بشكل آخر. وفي مطار لندن، وأنا أحمل حقائبي، بدت لِي الدنيا سوداء إلى درجة القتل - بعد فوات الأوان.

وبقيت عمورية تشتعل في ذهني طوال سنوات الدراسة. كانت كالجوهرة ببريقها وعنفوانها، حتى أن أذني اليسرى لم تتوقف يوماً واحداً عن الطنين، لأن في عمورية دائماً من يذكرني ومن يحبها ويتحدث عنها بفخر. عمورية، هذه الجوهرة المتألقة، بمقدار ما كانت تبعث فيّ الحنين وتحرّضني باستمرار، كانت تتشكل في ذهني بأشكال لا حصر لتنوعها. غير أن الخوف عليها كان أقوى هذه الأشكال وأكثرها حضوراً. لا.. لا أقصد الخوف بمعناه العادي المألوف. إنه شيء آخر أقرب إلى الحذر أو اللذة، ويتجسد أكثر ما يكون حين أحمل نفسي بحذر، لكي أتيه في أزقة عمورية، في أزقة بعينها، لكي التقي بنائلة، وامتلىء بذلك الوجه الساحر وتلك الجدائل الطويلة التي لا تتوقف لحظة واحدة عن الرقص، أو لكي أخطّ بالأحمر على الجدران أو أوزّع المناشير. كنت حين أفعل أحد هذين العملين امتلىء بالرغبة، باللذة، بالحذر، بشيء لا أعرف ماذا أسميه أو كيف أصفه.

لكن عمورية تغيرت. أجل، تغيرت كثيراً.

لعلها الآن أكبر مدينة مشوّهة في العالم. إنها تشبه كل المدن ولا تشبه أية مدينة. إنها لا تشبه حتى نفسها. عمورية قبل ثلاثين سنة كانت أجمل. أو ربما كانت نظرتنا إليها أكثر براءة وبساطة. عمورية الآن تشبه العروس القروية التي تريد تقليد نساء المدن، ولذلك فهي تضع على وجهها كل المساحيق وبكميات كبيرة. وتضع على جسدها مجموعة من الخرق الملونة المتنافرة، ثم تتباهى باستعراضها كل هذا النشاز من الأشياء والألوان.

عمورية الآن مثل تلك العروس القروية. جاءت الأموال السهلة

لتفسدها، لتشوهها، فلم تحتفظ بالماضي ولا استطاعت أن تدخل المستقبل. وظلت تستعير من الآخرين وتكدّس، ولن يمر وقت طويل حتى تنفجر من التخمة.

هذا الموضوع بقدر ما يثير اهتمامي أحس أني عاجز تماماً عن عمل أي شيء بصدده. فلا كتابة المقالات ولا إلقاء المحاضرات، ولا حتى إقامة المهرجانات العالمية كفيلة بحل هذه المشكلة التي تزداد تعقيداً كل يوم. أذواق الناس شذّت، أصابها عطب. ما الذي استطيع أن أفعل لكي أقف في وجه هذه الموجة العاتية؟ ماذا يستطيع روائي، أو أستاذ في أكاديمية الفنون، أن يفعل؟ كيف أفسر تأثير البيئة على أذواق الناس وتصرفاتهم؟ أم أن الأموال، إذ أتت بيسر ودونما جهد فكري وعضلي، أفسدت الناس؟ ولكن من ذا الذي يريد أناساً فقراء ومدينة معدومة؟

هل تضخمت عمورية من غير حساب؟ هل أفلست روحياً إلى الحد الذي لا يمكن عنده انقاذها؟ أكاد أقول، وقلبي يتحطم، إنها دخلت في حالة من الغيبوبة رغم حركتها الظاهرة. وما لم ينفخ في أرجائها في صور من نوع خارق، لست أدري كيف سيتاح لها أن تستيقظ على حقيقتها. لست أول من قال ذلك، ولن أكون الأخير. وأخي أدهم أكثر إصراراً مني على الكثير من هذا. وخالي، حسام الرعد، قد يترنّح على الأرصفة كقصبة تهزها الريح، ولكنه لا يتورع عن أن يوقف أي عابر سبيل في الليل ليقول له: «ألا تظن أن عمورية آن لها أن تلتهب؟» ثم يرسل قهقهة مخمورة ترتج لها نوافذ العمارات المظلمة. وقد سألته مرة تعقيباً على سؤاله: «وإذا لم يبق منها إلا الرماد؟» نظر إلي بحدة، وأمسكني من كتفي وهزني بقوة، ثم أطلق قهقهة مخمورة أخرى لتملأ جوانب الليل.

[١٣]

حين كنت بعيداً، كانت عمورية تتمدد في ذاكرتي كما لو أنها حورية البحر: مشعة، زاخرة، مليئة بالعنفوان. كنت أتذكر شوارعها شارعاً شارعاً، وأتذكر المنعطفات والزوايا، لكن أكثر ما أتذكر، الناس في عمورية. وحين تشمخ المدينة في ذاكرتي تعاودني الرغبة في الدفء والاقتراب من الآخرين، وتنتابني حالة من الهياج والنزق لا أعرف إن كان عليّ خنقها أم الامتثال لها، فأحس بحاجة إلى الغناء أو البكاء. هل كانت نائلة هي التي تولّد في قلبي هذه المشاعر؟ هل كان الشعور بالذنب نتيجة التخلي عنها والامتثال لأوامر أبي؟ كان أبي، أول الأمر، يضحك بسخرية، ويعتبر تلك المهمات السياسية التي أقوم بها مضيعة للوقت، ولا بد أن أتخلى عنها حالما أكبر قليلاً أو حين أقع في غرام فتاة.. لكن بدا له الأمر خطراً في وقت لاحق، فبعد أن أوقفتني الشرطة لاشتراكي في مظاهرة ضد الأحلاف العسكرية الأجنبية، وبقيت في النظارة ثلاثة أيام، وهو يرفض أن يأتي أو أن يبعث أحداً لتقديم الكفالة المطلوبة كي أخرج من النظارة، بعد هذه الأيام الثلاثة، جاء. كان يبدو لي رجلاً مختلفاً، كان شديد العصبية، نزقاً، وبكلمات قليلة، أقرب إلى الشتيمة، طلب إليّ أن أتوقف عن هذه «السخافات»، كما سماها، وقال إنه إذا اضطر هذه المرة إلى المجيء وتقديم الكفالة المطلوبة، فلن يفعل ذلك مرة أخرى حتى لو رأى جسدي يهتز في الهواء معلقاً على مشنقة. تطورت الأمور بعد ذلك بسرعة، وبدل أن يحاول اقناعي أو يحدد حركاتي وعلاقاتي اتخذ ذلك القرار: قرار السفر. وكما ذكرت، خلال ثلاثة أسابيع وجدت نفسي في مطار لندن. ارسلني مع صديق له كان مسافراً، وفي بضعة أيام كنت في فصل من فصول الطلبة الأجانب أتعلم اللغة الانكليزية، وما كادت شهور تنتهي حتى بدأت أهيىء نفسي لدخول الجامعة. صحيح أن صعوبات كثيرة قابلتني، وكدت أتوقف عن متابعة الدراسة أكثر من مرة، ولم أكن السبب

في ذلك كل المرات، لكن قوة ما هي التي ظلت تدفعني حتى وجدت نفسي، وقبل انقضاء سنة ونصف على وصولي إلى لندن، طالباً في جامعة مانشستر.

'عمورية قاتلة. عمورية استطاعت أن تقتلني أو أن توقع بي إصابات لا حصر لها، حتى على ذلك البعد. كانت معي أينما ذهبت. كانت تراقبني، تنظر إليّ، وتستمع إلى الهمسات التي كنت أوشوش بها الفتيات اللواتي تعرفت عليهن. لم تكن عمورية وحدها.. كانت نائلة تبرز إليّ من المنعطفات، وتقف في الزوايا المظلمة. أو... انني أتذكر الآن بمرارة حارقة تلك اللحظات من الخوف، حين أراها تبرز أمامي وأنا أسير مع فتاة، أما حين تنظر إلي من خلال عينين سحريتين، وأنا اتحادث مع امرأة، فكانت تثير في نفسي الخوف والحقد، في آن واحد.

طوال ست سنوات كنت مطارداً. كنت اتخفى، أتوارى. كنت أنتحل لنفسي أسماء لا حصر لها. وإذا تذكرت الآن الأسماء المستعارة التي انتحلتها أشعر بنوع من المتعة والاستغراب معاً. لماذا كنت هكذا؟ ولماذا كنت أحمل معي عمورية أينما ذهبت؟ولماذا أحرص على هذا العالم الوهمي المتمثل أيامئذ بنائلة؟ كانت نائلة تنظر وتبكي. كانت عاجزة عن الكلام. لم تستطع أن تقول كلمات كثيرة حين أبلغتها بالسفر. قالت إنها ستبقى وإنها ستنتظر، لكن بعد السنة الثانية، وبعد عدة رسائل تبادلناها خلال الفترة الأولى، لم يبق شيء. جاءها واحد من أبناء عمورية، من أقربائها. ودون انتظار طويل، ودون اعتراضات كثيرة، ذهبت معه. أتوهم، إن أنا تصورت شيئاً آخر. لكن نائلة التي غادرتني بعد السنة الثانية من إقامتي بعيداً عن عمورية ظلت شبحاً، ظلت حلماً. حين كنت أعتلي التلال الخضراء النديّة، حين كنت انفلت، مثل قرد، في كل الاتجاهات، كنت اتصور نائلة. كانت القبلات الثلاث، وتلك المسكات الصغيرة من الذراع، ومرة واحدة في الفخذ، شيئاً رائعاً، مستحيلاً... وحتى وقت متأخر أتذكر تلك الارتعاشات والخوف وما يشبه السقوط.. ثم تلك التمتمات التي ظلت تدوّي في الرأس والذاكرة، كما لو أنها تحدث الآن.

العيش في المدن الباردة المعتمة يولد في النفس رغبة غير محدودة في إقامة توازن من نوع ما مع الطبيعة، توازن يواجه البرودة والعتمة. إذ ما كدت افتقد عمورية، أو ما كادت عمورية تبتعد، حتى داهمتني البرودة والعتمة، بدت لي الشمس حلماً، وأصبح الدفء أمنية، وغدا جسدي شديد الالحاح عليّ إلى درجة لا أعرف عندها كيف أتعامل معه. هل أن جدي الأول حمدي سويلم، قاطع الطريق، المغني، فاتن النساء، اخترق الزمن والأجيال وجاء ليحل في هذا الجسد، ليمنحني القوة والجرأة؟ هل الخوف من الآخرين ومن المدن الغريبة ولّد فيّ تلك الرغبة في التنكّر والتخفي؟ شيء ما وُلد في نفسي فجأة. وهذا الشيء بمقدار ما كان يسوقني، يدفعني، كان يجرّني إلى الخلف، يمنعني عن الحركة الحرة.

المرأة هي بداية الخليقة، هي كل المتعة وهي أصل الأشياء، قبل آدم، ومن غير الضلوع والطين هي. البياض المشرب بحمرة خفيفة، النعومة الزلقة الرطبة، الاشتعال القاتل، الصوت الصغير المقتول من غير الصوت، النظرة التي تنبع من أكثر من العين، الهسهسات في الحركة، في الالتفات.. اتذكر ذلك فأحس بالتخاذل والقوة معاً، أحس بحالة من التجمع والتكاثف، ثم الانفجار.

كان ذلك أول رد فعل لدي على المدينة، على برودتها. كنت أريد أن أقاوم. جاء حمدي سويلم ذات ليلة وقال لي بصوت شديد الوضوح: «تعرّف على نفسك في الآخرين... في أجساد الآخرين». وحين نظرت إليه باستغراب، تابع وهو يقهقه: «المرأة طريق المعرفة». وغاب حمدي سويلم. ومنذ ذلك اليوم لم أكذّب خبره، إذ ما كاد وقت قصير ينقضي حتى بدأت أدرك معنى الكلمات التي قالها ذلك الشيطان الذي ترك في دمائنا هذا المقدار الهائل من القسوة، ورغبة المعرفة، والعناد.

ولكي أتوازن وأتغلب على الخوف، عزمت على تطبيق وصية الجد الذي ما يزال قبره على التلة الغربية في المطلة، وبدأت أعرف معنى أن يحيا الإنسان: معنى أن يحيا وأن يموت، أن يعرف وأن لا يعرف، أن تكون له إرادة، وأن لا تكون. وكلما حصلت على شيء عن غير حق، بررت ذلك

بأنه من لعنة جدي الأول. حتى حبي لنجوى فيما بعد ـ بعد عشرين أو ثلاثين امرأة بينها وبين نائلة ـ كان ضرباً من قطع الطريق، ضرباً من السلب ـ والعنجهية النفسية. إنني أمير غير معترف به. ولي حقوق الأمراء وشهواتهم. خيولي تحمحم عبر مئات الصفحات التي أكتبها وأخرى تنتظر، وعليّ أن أطلقها في حملة هنا وغزوة هناك تأكيداً على إرادتي. وسألتقي يوماً بحمدي سويلم بين صخور المطلة وأقول له: «أنت بدأت، وأنا أكملت». واستعرض معه الغنائم، ولن يقول إنه كان أنجح مني فيما أدرك وحقق ـ مع فارق الزمن والبيئة: مملكته مئة كيلومتر مربع، ومملكتي الكرة الأرضية كلها. مملكته حرة كالرياح الأربع، رغم الآغاوات والجندرمة، ومملكتي تملأها الرياح الأربع بالأغوات والجندرمة.

[١٤]

نجوى تعرف كيف تولّد الشكوك في كل لحظة. حتى ابتساماتها، في أحيان كثيرة، تثير التساؤل أكثر مما تولد الراحة.

ومرة أخرى أحاول الآن الالتفاف. نجوى لم تكن هكذا. أو بالأحرى لم ألاحظ ذلك في البداية. كانت نجوى كالندى، أو كالضوء. . هكذا كانت منذ ست سنوات. هكذا كانت عندما التقينا قبل أن تتزوج. في المرة الأولى بدت خجولة، وتعثرت بكلماتها. ورغم أني اكتسبت عادات «سيئة» خلال اقامتي في انكلترا، ومن تلك العادات إقامة العلاقات العابرة مع النساء، بالحديث الضاحك الصريح، وأحياناً برواية النكات البذيئة، فقد شعرت بما يشبه الحرج في لقائي الأول مع نجوى، لكن هذا الحرج زال وتلاشى في المرات التالية. أما نجوى فقد تقبلت جراتي بمرح، إلا أن الخجل لم يزايلها. كانت تهرب بنظراتها. كانت تبتسم دون أن تدعني أراها. وبعض الأحيان تستعمل كلمات احتجاج مباشرة وعلنية، لكني كنت أدرك أنها لا تعنيها. كنت أحس أن في نجوى شيئاً ما يجذبني إليها، لكن لم أكن صغيراً أو غريراً بحيث أفكر بالكلمات الكبيرة، بالأحلام التي تراود العشاق والمراهقين. كنت أعرف أن أمراً مثل هذا يجب ألا أفكر فيه. كما لن أنجر إلى مغامرات وإحباطات. كنت أحتفظ بمسافة كافية بيني وبين أية امرأة. لا أزعم أني أعرف عالم النساء معرفة كاملة، لكني على ثقة بأنني أعرف عن هذا العالم الكثير، أعرف عجائبه وروعته وجنونه. وأعرف أكثر من ذلك نوعاً من النساء لا يرضى إلا بالسيطرة الكاملة والامتلاك الكلي. وهذا النوع من النساء كنت أخشاه بقدر ما أريد أن أحاوره، أن أبارزه، أن أدخل معه في معركة. نجوى كانت من هذا النوع.

بدأت القصة بشكل بسيط للغاية، كما تبدأ آلاف القصص مثلها، وكان يمكن لها أن تنتهي دون أن تخلف ذكرى أو تترك أثراً، فتُنسى حتى من الذين كانوا «أبطالها»! لكن الأمر بدا، منذ اللقاء الأول، مختلفاً.

صحيح أنه خلال ذلك اللقاء، واللقاءات التي بعده، لم تحصل أمور غير عادية، بل كان الجو فيها مليئاً بالحذر وتخلله صمت طويل، حتى قلت لنفسي في فترة من الفترات أن نجوى بليدة ولا تخلو من كبرياء مصطنعة، ولذلك لم أفكر بتوثيق العلاقة، ولم أحرص على اللجوء إلى الحيل الصغيرة التي كثيراً ما يلجأ إليها العشاق أو الصيادون.

وفي هذه الفترة انشغلت بأمور كثيرة، إذ إضافة إلى جمع المعلومات عن منمنمات القرنين الثاني عشرة والثالث عشر للميلاد، كنت أنوي وضع دراسة دقيقة عنها، كنت أريد أن انتهي من كتاب عن تاريخ الفن المقرر لطلاب الصف الرابع في الأكاديمية. وكنت مشغولاً أيضاً في وضع روايتي الجديدة «شجرة النار» في شكلها الأخير ـ وقد انجرفت إلى العيش في أجوائها ومع شخصياتها ليلاً ونهاراً. لم يكن لديّ الوقت أو الاستعداد النفسي لأن أعيش قصة حب أخرى، خاصة مع امرأة مثل نجوى. ولو أنني، في زاوية مظلمة من نفسي، تصورت أن نجوى لا تخلو من شبه بإحدى نساء «شجرة النار». ولكنني اسقطت ذلك من ذهني، قائلاً إن العلاقات التي يمكن أن أقيمها باتت وكأنها لعبة معروفة ومستنفدة. هذه العلاقات كنت أعرف مداها، وتطوراتها، ثم نهاياتها، وكل طرف آخر يعرف أيضاً، دون كلمات ودون مناقشات، هذا المدى، وما ينتظره من تطورات ثم نهاية. هناك أمور في الحياة، رغم أهميتها وضرورة الحديث فيها وعنها، إلا أن حالة من البكم تحيط بها. وبمرور الوقت تصبح مثل هذه الأمور أسراراً غامضة وحالة من العجز والحيرة، ثم تحيط بها مجموعة من التفسيرات تحيلها إلى وهم حقيقي. . . هكذا كانت علاقاتي مع عدد من النساء.

نجوى اذن لم ترد في بالي، لم تشغلني كثيراً، غير أنني اعترف في ذات الوقت أنها كانت تترك في نفسي، بعد كل مرة نلتقي، أثراً لا أستطيع تحديده. ورغم أني لم أفطن لهذا الأمر في البداية، إلا أن حالة الضيق، وبعض الأحيان حالة العصبية أو الاستغراق في أفكار غامضة مشوشة، جعلتني استعيد أموراً لم تكن تخطر في بالي من قبل.

أريد أحياناً أن أجمع حياتي الماضية كلها، علاقاتي، قناعاتي،

أوهامي، أن أجمعها في بؤرة واحدة، لا لكي انظر من خلالها، وإنما لكي أفجرها وأبعثرها، حتى تصبح نثاراً من الذرات الهائمة في فضاء لا نهاية له. ثم أحاول جمعها من جديد، أحاول جمعها وإعادة ترتيبها، كل ذلك أفعله مدفوعاً بوهم استعادة أيامي الماضية ضمن نسق استطيع أن أفهم له منطقاً، أياً كان هذا المنطق.

محاولة عسيرة، ولا تعتمد منطقاً، كما أنها قد لا تعني شيئاً حقيقياً، حتى على افتراض إمكانيتها. لعل الباعث لهذه المحاولة هو الرغبة في إعادة صياغة الحياة، أو على الأقل تذكرها جميعاً على نحو متصل. . وبين الرغبة والمحاولة تختلط الأشياء، وتتراكم.

دماء العائلة. . . لقد تركت خطاً عميقاً. إنه لا يظهر في الملامح، كما تؤكد عمتي نصرت، ولكن لهذه الملامح ناحية خفية، لا تراها العين بسهولة، حتى بالنسبة لي ظلت خافية فترة طويلة من الزمن. . وحين تكشفت أصبت بالفزع، ثم بالحيرة، وأخيراً وقعت في دوامة تساؤلات لا إجابات عليها، قطعاً.

لا دماء العائلة وحدها. فتلك الأحداث المدوية، وتلك التي مرت دونما دويّ، ولكنها مرقت في اللحم كالسكين، والتغيرات التي حصلت خلال هذه الفترة، وما خلفته من مآسي وحماقات سيطرت على حياتنا، هذه كلها تركت مرارات كثيرة.

ثم جاءت العلاقات النسائية: علاقات من الصعوبة أن تجتمع في وقت واحد، وفي مكان مثل عمورية، لكن هذا الذي حصل عملياً. ونتيجة هذه العلاقات المتداخلة تولدت حالات مضطربة، فيها متعة ولذة، وفيها مخاطر وآلام. لأن نجوى لم تكن الوحيدة بل كانت واحدة من علاقات. صحيح أن وضعها كان متميزاً وأساسياً، لكنها لم تكن الوحيدة.

عن أي شيء أتحدث الآن؟ اختلطت الأفكار، والرغبات، مع الوقائع مرة أخرى. وفرزها أمر شديد التحدي، ومهمتي هي أن أعيد ترتيب الأجزاء، أن أجمع الذرات المتنافرة، لعل الصورة تتضح ـ تتضح لي أنا، على الأقل.

[١٥]

هناك ما لا يتحدد بالزمان. ولا يتحدد بالمكان. شيء ما أشبه بالوجود المطلق، يتعدى كل حس بالزمان والمكان. ينتاب المرء بغتة، على غير ما انتظار. ينتابه في لحظات لا بد أنهاتكوّنت نتيجة فعل غريب لا يفسر في خلايا الدماغ. وهي «لحظات» بالمصطلح الزمني، غير أنها خارجة على الزمن، بقدر ما هي «مسافة» بالمصطلح الجغرافي، ولكنها خارجة على الجغرافيا. كأن فجوة في الكينونة تقع، تؤكد الكينونة وتتخطاها معاً. مثل هذا الشعور كان ينتابني أحياناً، ويرعبني. وكلما تأملت فيه فيما بعد، كنت كالمتخبط في فراغ. وهو يعاودني الآن أكثر من قبل، ويرعبني كل مرة، ولا أستطيع التعود عليه. أشبه بغيبوبة، ولكنها غيبوبة واعية. كيف أصف هذا الحس المتناقض؟ وكما أنك في ثوانٍ قد تحلم حلماً فيه أحداث سنوات، هكذا تعي ما لا يستطيع الوعي حصره من وجود مكثف ولكنه شفاف، متحرك ولكنه ساكن. هل هي رفرفات أجنحة الجنون تباغتني، تعذبني وتنذرني معاً؟ أن أرى حياة كاملة، تعلو وتسقط، تتبلور وتتفجر، تُلتهم شبقاً ولذة، تذوب حزناً وأسى، وتستوي عنيفة وفاجرة، وتغيب في أعماق أوقيانوس مجهول - أي زمن ذاك؟ أي حدود فضائية تلك؟ أي مرحلة من مراحل العمر، أو الكينونة، أو الولادة، أو الموت؟ أي وجود آخر يفرض نفسه ويلغي كل ما هو سواه؟ أأحيا فيه حياة أخرى، هي ربما الحياة التي كان يجب أن أحياها وأنا لا أدري؟ أثمة علاء آخر بين جُنحَيّ، يسكن في أهدابي دون معرفة أو إذنٍ مني، يفلح في وهلات الرعب في التأكيد على وجوده فيّ؟

لو كنت فقط نتاج تجربتي الشخصية (ولتدخل فيها تجربتي العائلية)، لهان الأمر. أو لو كنت فقط نتاج تجربتي القومية التاريخية، لهان الأمر كذلك. أو على الأقل لأتضح الطريق أمامي، ولعرفت وجهة سيري - ولو إلى الحد الذي يكون ثمة هناك ما، أو من، ينقذني من الضرب في التيه.

ولكن التجربة الشخصية كانت متداخلة مع التجربة التاريخية. كنت في دخيلة نفسي أربّي إنساناً لا يخشى التمرد في سبيل ما يرى أنه الحق، أو الرغبة، أو مهما يكن ذلك الذي تطلبه الذات على رؤوس الأشهاد كما تطلبه في أحلامها السرية ونشواتها المكتومة. وكنت في الوقت نفسه أربّي إنساناً يريد تسيير التاريخ بصحبة جماعته على نحو يدفعها إليه شعورها بألف سنة من الاضطهاد وسلب الارادة، والسيطرة من قوى شريرة غامضة تنقَض عليها من فوق، أو تتآكلها من الداخل. ولكن ما مقدار ما اتفق هذان الانسانان فيّ؟ ما مقدار ما اتفق انسانان كهذين في أي شخص عرفته طيلة عمري؟ يكفي أن تتحرك جماعياً، لتُسلب إرادتك الذاتية بعد يومين أو ثلاثة. يكفي أن تتحرك كفرد، ليفرض عليك الحظر، بشكل أو بآخر. وإذا حاولتَ ايجاد الصلة - التي تتصور أنها لا بد أن تكون حركية، جدلية، ومولِّدة - بين دخيلة ذاتك (بمؤثراتها التي لا تحصر، بنوازعها التي تعجز التحكم بها إلا تحت طائلة العقاب أو الطرد من المجتمع) وبين دخيلة جماعة تدفعها اللهفة إلى المستقبل، ويتحكم بها الارهاب من كل صوب في الداخل والخارج، اكتشفت أن ما أقمته من صلة ليس إلا وهماً آخر لا يكاد يترك خدشاً في واقعك التاريخي، ويشوّش عليك أصواتك الداخلية.

عمورية ليست المسؤولة. الناس في عمورية هم المسؤولون. قد تكون عمورية بامتدادتها السرطانية واتساعها غير المنطقي، ثم تلك الطريقة الغبية في البناء، المستعارة من البداوة بشكلها دون أن تكون ممثلة لروح البداوة، والتي تأخذ شكل البقع أو البثور الجلدية في سطوح وسلاسل غير منتظمة، قد تكون عمورية بهذا الشكل سبباً في خلق الفجوة بين الناس وما حولهم من طبيعة وأشياء. لكن هذه المدينة لم تختر شكلها وأسلوب الحياة التي يلائمها، كما لم تختر هذا الامتداد والاتساع. البشر هم الذين اختاروا وقرروا. ونتيجة هذه الاختيارات الفظة اكتسبت عمورية هذا التجهم الذي يلمسه الانسان، بل يصدم به في كل لحظة. الناس الأوائل في عمورية، والذين تعاقبوا جيلاً بعد جيل، وتركوا آثارهم في الأشياء المتواضعة التي خلّفوها، كانوا أكثر عقلاً ورأفة بأنفسهم وبما

حولهم. لكن السنوات التي تلت الحرب الأخيرة غيرت حياة الناس وافكارهم وسلوكهم، وتبعاً لهذا التغير تغير كل شيء.

نعم. ما كانت عمورية لتأخذ هذا النسق من الامتداد والاتساع، وما كانت لتكتسب هذه القسوة والوحشية لولا انبثاق هذه الثروة - اللعنة فجأة، ودونما جدارة من أي نوع، ودونما استحقاق أيضاً. نامت عمورية ذات ليلة وقامت في الصباح لتجد نفسها شيئاً جديداً.

من حقي أن أتذكر الأيام القديمة لعمورية. قد تكون أياماً قاسية مليئة بالعذاب، لكنها كانت ضمن أي مقياس يختاره الانسان، أكثر رحمة وانسانية. لا، لن أدافع عن قسوة البشر الذين راحوا. ولن أكون غبياً لكي أدافع عن هياكل الدراويش والأغوات، وأولئك المبطونين الذين اختبأوا طيلة الفترة التي حارب خلالها البائسون والفقراء، والذين لا أسماء لهم، حتى إذا انتزعوا الاستقلال وحرروا أرض الوطن، جاء أبناء الدراويش والأغوات والمبطونين، لكي يعفّروا وجوههم، في اللحظات الأخيرة، بغبار المعركة، ويرفعوا أصواتهم أكثر من أصوات الفقراء، لكي ينتزعوا كل شيء لأنفسهم. نعم لن أدافع عن أيام قديمة. الأيام القديمة انزلقت إلى التاريخ، وقد تجد من يستعيدها لكي يعطيها قيمة من نوع ما. ما أحرص عليه الآن هو الا أترك الحياة المزورة تسيطر على كل شيء. أعرف أني مجرد فرد. فرد أعزل. ولا أملك من وسائل الدفاع سوى تلك الأوراق التي سودتها، والنوايا المثالية. وقد أسقط في هذه المعركة الكبيرة الطاحنة. لكن وقتاً سيأتي يلّذ لي ان أتخيله، لا يحول الكلمات إلى رصاص - وسوف يكون رصاصاً قاتلاً - بل يجعلها وعياً متوثباً، وحباً للإنسان والوطن.

في سفرة واحدة قطعت مرحلتين. وإذا واصلت السير بهذه الطريقة فسوف أكونُ كالمُنْبَتّ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. . . أدرك ذلك. ولكن تلك الحمىُّ التي تشتعل في داخلي لا تترك لي فرصة كافية، وتجعل ذهني مضطرباً وعصبياً، فتتداخل الأفكار والمراحل، وأضيع بين الحلم والواقع، بين الإمكانية والرغبة. لكن مهلاً، فعمورية التي تبدو لي الآن

متفردّة ضاجة، إنما يختال في شوارعها عشرات الخواجات الجدد. عمورية التي أراها الآن، أرى أنها مع كل حجر تقيمه، مع كل ضربة فأس في أرضهـا، تخنق روحاً وتقتل حلماً. وهي تفعل ذلك بتعمد وبصوت عال.

أعرف أني الآن أتعدى وأني تجاوزت الحدود المسموح بها، ولا بد أن ينهض واحد من أبناء عمورية الغيارى ويطلب أن يعلق علاء سلوم في أحد الميادين عقاباً على ما اقترفه لسانه، أو أن تغمز عينٌ مشيرةً لأحد الذين عرفوا النعمة مؤخراً، وينطلق هذا الصنديد لكي يخلص عمورية من هذا الوباء، وينتهي علاء سلوم كما انتهى آلاف قبله - وكما سوف ينتهي آلاف بعده إذا ظلت الأمور كما هي الآن!

لا أقول هذا الكلام تحريضاً أو إثارة. لا، لست على هذه الدرجة من الرعونة، وما عدت بسذاجة صباي أعتبر نفسي نبياً أو قديساً عليه أن يبشّر ويدعو. أنا إنما فقدت الثقة، وأوشك الآن أن أنسحب بهدوء من المسرح دون أن يحس بي أحد، ودون رغبة من أي نوع: ما دفعني لقول ما قلت هو أن عمورية البشر، عمورية القلوب، تضخمت وتغيرت، تغير من فيها من بشر وقلوب. ولكنت ربما أرضى بذلك كله، لولا أن نجوى، منقذتي ذات يوم، أثارت في نفسي الدهشة والحيرة، ثم الغضب لفرط ما تغيرت هي أيضاً.

[١٦]

في أكثر من فترة واحدة في حياتي، كـان العيش مستحيلاً عليّ، لولا سعيد، وحبه، وبراعته. ربته أمي على العناية بي منذ طفولته. وقد جاءت فترة في الستينات تركنا فيها ليُعنى بشؤون خالي، حسام الرعد، ولكنها لم تطل، وعاد إلينا، ووُفِّقت أمي في تزويجه من كلثومة، كما كانت قد زوجت أمه قبل ذلك بربع قرن أو أكثر من أبيه، حمد الشاكر.

كانت امه عوّاشة فتاة يتيمة من إحدى القرى الجبلية أتت بها أمي، في السنين الأولى من استقرار أبي في عمورية، وجعلتها في خدمتها، حتى غدت جزءاً من العائلة. ولعلها لم تكن يوم مجيئها إلينا قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها. وقصة زواجها ـ بعد ذلك، بسنوات ـ بقيت من تراث عائلتنا: ترويها أمي، وترويها عواشة حتى بعد أن ترملت، وشاخت، بتلذذ كبير.

فقد كان يتردد علينا في بعض الأحايين جندي، أصله من المطلة، يدعى حمد الشاكر، وكلما جاء أقام عندنا لثلاث ليال أو أربع. أحبته عواشة حباً جنونياً وباتت تتطلع إلى زياراته بلهفة وقلق، ولكنه فيما يبدو لم يكن يفكر كثيراً بالزواج. فنذرت عواشة، بينها وبين أمي، إذا تزوجها هذا الجندي، الذي ترى بدلته الخاكية أجمل من عباءات الفرو وأثواب الحرير، فإنها ستحبو على الأربع، على يديها وركبتيها، طيلة الطريق من دار نجيب سلوم إلى جامع السلطان علي... والمسافة بينهما ليست بالقصيرة أبداً.

أفلحت أمي باقناع الفتى، ووعدته إن هو تزوج من هذه الفتاة السمراء، الحلوة الذكية، الضاحكة، فإنها ستسمح لهما بالسكن في «المشتمل» الذي أضافه أبي يومها إلى الدار. وهكذا كان. وتزوجت عواشة من حبيبها.

ولشد ما كانت دهشة أهل الحي حين رأوا ذات صباح باكر، امرأة

تحبو على الأربع على رصيف الطريق، تحبو كحيوان خرافي، ملفعة بعباءة سوداء، وترفع رأسها بكبرياء، وقد كحلت عينيها والوشم الأزرق يتلألأ مكان حاجبيها وعلى ذقنها وظاهر يديها، في أصابعها الخواتم، وعلى كل رسغ يبرز سوار سميك من الفضة، وعلى كل كاحل خلخال كبير من الفضة يلتمع عند أطراف عباءتها.

وكانوا يسألونها: «ما بك يا عواشة؟ هل جننت؟!» فتردّ، دون أن تتوقف عن حبوها: «عليّ نذر، يا أهل الخير. حقق الله مرادكم جميعاً!»

لم ترزق عواشة وزوجها إلا بسعيد. كان طفلاً كثير النشاط والحركة، لا يترك آلة لا يعبث بها أو جداراً لا يتسلقه، كما لا يترك زائراً أو مستطرقاً لا يسأله عن اسمه، أو يلاعبه، أو يشاكسه. أدخله أبي في مدرسة ابتدائية قريبة، وانتهى منها بنجاح، فأدخلناه في ثانوية متوسطة، ولكنه لم ينه منها إلا سنة واحدة، رسب فيها، ورفض العودة إلى المدرسة.

وبعد موت والديه، غدا اعتمادنا عليه في شؤون البيت كلياً. وعندما تزوج بعد ذلك ببضع سنوات، كان الكثير من أمور حياتنا، بعد وفاة أمي، ثم أبي، في عهدة سعيد وزوجته كلثومة. كان يتباهى بأنني أطلعه على ما أكتب قبل أن أطلع أي شخص آخر. لست أدري كيف تطورت الأمور «الفكرية» بنا بحيث جعلته محكّاً، أو مختبراً، للكثير مما أكتب. فهو، إلى مهارته اليدوية في كل ما يحتاج عناية ميكانيكية، جعل يقرأ كلما أتيح له الوقت ـ ويقرأ بتركيز واهتمام، ويعلق معي على ما يقرأ بملء حريته. يناقشني على نحو كان يدهشني أحياناً بدقته. طبعاً كنا نختلف كثيراً. فهو أميل إلى المحافظة في ذوقه، وفي غرفة نومه في «المشتمل»، كان ينزع إلى جمع القواميس والكتب التراثية، قائلاً إن حسبه من الكتب الحديثة ما يراه في مكتبتي! وأنا أبقي على صلتي بكثير من القضايا اللغوية عن طريق اهتماماته هو، ولعله يعرف ذلك فيشعر سراً بأن له مساهمته الخفية فيما أكتب وأنشر!

وكان سعيد أدق مني ومن صبا في الحفاظ على علاقاتنا مع أفراد الأسرة كلها: فهو يحفظ أرقامهم التلفونية ويعرف أماكن سكناهم،

ويتعقب الكثير من شؤون حياتهم، ويبقى كالمكّوك غادياً رائحاً بيننا وبينهم على دراجته النارية التي أشتريتها له هدية في إحدى المناسبات العائلية. والعمة نصرت، ما عليها إلا أن تفتح النافذة من غرفتها في الطابق الأعلى، والشرفة على «المشتمل»، وتصيح: كلثومة! سعيد! حتى يأتي أحدهما راكضاً إليها، ليتلقى، في الأغلب، طوفاناً من الكلمات لا يربط بينها رابط من أي معنى.

كان سعيد يعرف مبلغ حرصي على سعادة صبا وراحتها، حتى بعد زواجها، فيسعى إلى إرضائها هي ونبيل، بقدر ما يسعى إلى ارضائي. ولا أعرف هل لاحظ اهتمامي بنجوى على نحو يثير الشكوك. فهو يهيء لنا العشاء كلما اجتمعنا في الليالي معاً في غرفة جلوسي ـ أنا وصبا ونبيل، ونجوى وخلدون، وقد يكون هناك أيضاً صادق أو غيره من الأصحاب، مع زوجاتهم أو بدونهن. إن الذي يعرفه، هو أن بين صبا ونجوى صداقة اشتدت عمقاً بعد زواج نجوى، لكثرة ما شاهد من زيارات نجوى لنا ـ وهو لا يعلم (أو كنت أرجو أنه لا يعلم) أن لي علاقة بالأمر.

على كل، بعد فترة، لم يعد يهمني ما يعرف سعيد أو لا يعرف عن العلاقة بيني وبين نجوى. أما صبا، فإنها لم تذكر لي الموضوع، ولو من طرف بعيد. هل كانت راضية عن كل شيء؟

صبا، لو طلبت الشمس مني، لأعطيتها القمر أيضاً. كان جمالها، بالاضافة إلى رقتها وسماحة طبعها، يبدد الكثير من ظلمات الجو الذي كنت أجدني فيه. وعندما تناصفت معها بيتنا، لكي تبقى مع زوجها قريبة مني ومن العمة نصرت ـ وأخي أدهم نكاد لا نراه مرة في السنة، إذ يعيش في لبنان وسوريا مع الفدائيين الفلسطينيين ـ لـم أمن عليها بشيء، بل شعرت أن ذلك من طبيعة الأمور. ورغم أنها توظفت، وكان لها راتب (مهما تكن هذه الرواتب الموضوعة وفق نظم استخدامية عتيقة لا علاقة لها بتكاليف العيش المتصاعدة)، فقد كنت أعطيها من النقود بين الحين والحين ما لا أحاول أن أذكر مقداره. وبعد زواجها من نبيل الصالح واضافة راتبه إلى راتبها، لم أكف عن طريقتي القديمة معها. أريد لها السعادة، والراحة.

أريدها أن تكون قريبة مني في البيت، ومستقلة عني في الوقت نفسه. وإذا فرضت على نفسي العزلة، مهما يكن السبب، احترمت هي ذلك مني، ولم تقحم نفسها عليّ، إلا بطلب مني.

هل كانت تعرف شيئاً عن حقيقة ما يجري بيني وبين نجوى؟هل أخبرتها نجوى؟ هل همها الأمر، أم لم يهمها؟

هل كانت تريدني أن أبقى متعلقاً بصديقتها ـ لحبها لها، أو لي، أو لأي سبب آخر لن يخطر ببالي؟ ولكن من، بحق السماء، من استطاع أن يدرك أعماق ذهن العمة نصرت ـ تلك الأعماق السحيقة المظلمة ـ ليفهمها أنني لا أستطيع أن أحيا يومين متواليين بغير نجوى؟

في إحدى الليالي كنت وحدي في البيت ـ باستثناء عمتي، المقيمة أبداً في ملكوتها الخفي في الطابق الأعلى ـ في انتظار نجوى، التي اتصلت بي تلفونياً وقالت إنها ستمر بي لبضع دقائق. كنت قد صببت لي كأساً أتسلى بها في فترة الانتظار. كلما انتظرت نجوى، عذبني الانتظار وكأنها أول مرة انتظرها فيها، وعليّ أن أشغل نفسي بأمر ما. آخذ كتاباً، وشيئاً من الويسكي، وأعزف اسطوانة أو كاسيتة على الستريو. وقد أعزف عدة اسطوانات، حتى باتت الموسيقى عندي مقرونة بذلك الجحيم اللذيذ الواعد بكل ما اشتهي. وما كادت الموسيقى تبدأ، وما كدت أجلس، والكتاب في حضني، وأرفع الكأس إلى شفتي، حتى رأيت بباب الغرفة، دونما صوت، قوام العمة نصرت الممشوق، سوداء كالليل، ما عدا وجهها الأبيض الغضين، ويداها تلوحان بسلاميات عظمية مستطيلة بيضاء. وعيناها فجوتان رهيبتان من ليل آخر.

ـ أفزعتني، يا عمتي!

قلت ونهضت، وهممت بالسير نحوها. ولكنها رفعت سلامياتها عالياً، حيث هي واقفة، وقالت بصوت خفيض أولاً:

ـ لا تقترب مني يا علاء ـ يا حبيبي يا علاء. هل أنت وحدك؟

ـ نعم. هل من حاجة؟

ارتفع صوتها بغتة، كأنها تخاطب جمهوراً من الناس.

ـ أية حاجة؟ أنا لست بحاجة! علاء! أسمع همس الشياطين في هذا البيت من جديد... أخاف عليك من أنفاس الشياطين، وقاك الله وصانك! هذه المرأة القادمة إليك، أتعرف من هي؟ أتعرف ماذا تريد منك؟ علاء، حرستك الملائكة من أنفاس الشياطين... حمدي سويلم صرخ في أذني وأنا جالسة فوق، قرب الشباك، وقال: الحقيه يا نصرت، الحقيه! وعرفت أن هذه المرأة قادمة إليك، تركض وهي حافية، والدم يسيل منها، وحمدي سويلم أبو الملاعين كلهم يصيح: «الحقيه يا نصرت، الحقيه! والحقيها هي أيضاً، الحقيها!.. ولكن مالي ولها؟»

وهبط صوتها مرة واحدة، وقد سقطت يداها إلى جانبيها: «طيب، يا حمدي يا سويلم. الذي عليّ أنا سوّيته... كلثومة! سعيد!»

خرجت وهي تنادي، وراحت تصعد الدرج ونداؤها مستمر، إلى أن دخلت غرفتها وانقطع صوتها. وانتبهت إلى أن الموسيقى ما زالت تنطلق من سماعتي الستيريو الضخمتين. وأسرعت، ورفعت الصوت دفعة واحدة حتى اهتز البيت بزعقات الأوركسترا، وأنا كالمأخوذ جامد في مكاني. جرعت ما في كأسي، والموسيقى تمزّق سمعي. وإذا بي رغم ذلك، اسمع خبطاً عنيفاً على باب المدخل. فأسرعت إليه، وفتحته. وكانت نجوى. فسحبتها من يدها إلى الداخل، وطبقت الباب وراءها. وقالت ضاحكة: «ما بك يا علاء؟ ما هذه الأصوات الطاحنة؟ ضغطت جرس الباب عشر مرات. ألم تسمعني؟» هززت رأسي، ولم أعرف ماذا أقول. فضحكت مرة أخرى، وسارعت بي نحو غرفة الجلوس واتجهت حالاً نحو الستيريو، وأدارت زر الصوت دفعة واحدة، حتى كادت الموسيقى تتلاشى، وجاءت أشبه بهمس بعيد.

كانت الكأس الفارغة ما زالت بيدي، فتناولتها نجوى مني ووضعتها جانباً. «ما بك يا علاء؟ ألا تسمعني، علاء!» وأمسكت بوجهي بين يديها ورفعت شفتيها إلى شفتي. «ما بك يا حبيبي، ما بك؟ لا أستطيع البقاء طويلاً...» وأعادت تقبيلي، وأنا أتلقى شفتيها على فمي، وخدي،

وذقني، ولا أستجيب.

وأظن انني عندئذ سألتها: «اتسمعين همس الشياطين؟»

فرنت حنجرتها بضحكة فضية: «أتقول همس الشياطين؟ تقصد صراخ الشياطين!»

ـ ماذا؟ أية شياطين؟

ـ أنت الذي تتكلم عن الشياطين.

ـ أوه... أنت والعمة نصرت، كلتاكما مهووستان بالشياطين...

فنظرت في عيني، ومررت أصابعها في شعري، وبعض شعرها تائه على خديها، «علاء، أتهذي؟ أتهذي من الحب، أم أنك شربت كثيراً؟» ثم وضعت كفها على جبيني: «أنت محموم!»

ـ لا، لست محموماً. أبداً.

وأخذت وجهها أنا هذه المرة بين يدي، والتقمت شفتيها حارتين، نديتين، بين شفتي. «ما ألذك!» قلت، وفمي على شفتيها، وجسدها ينهصر بين ذراعيّ، ناسياً كل شيء. للحظتين أو ثلاث فقط، لأن كلمات العمة نصرت داهمتني مرة أخرى: «حافية، والدم يسيل منها.» فدفعت نجوى عني، وبكل جدية نظرت إلى قدميها قائلاً: «هل أنت حافية؟»

فتساءلت منذهلة: «حافية؟!» ثم مدت قدمها اليسرى. «لا يعجبك حذائي؟» وضحكت.

وسألتها، مستمراً بجديتي إزاء تندرها: «هل أنجرحت اليوم؟»

وأصابتني رعشة في العنق، في فروة الرأس، حين أجابت، مستمرة بضحكتها: «دست على شظية زجاج في المطبخ صباح اليوم... كيف عرفت؟ أوه.. وسال الدم من قدمي... شوف.»

ونزعت حذاءها الأيسر بسرعة، ورفعت قدمها وأرتني شريطاً صغيراً لاصقاً فوق الشاش بأخمصها. ومع الرعب الذي أصابني، فاجأني إحساس لذيذ جعلني أهوي إلى الأرض، وأقبّل ضمادة الجرح، وأقبل

أخمصها، وأصابع رجلها، وقد تملكتني شهوة قاتلة. ونجوى تضحك، وتحاول المحافظة على توازنها على قدم واحدة، ولا تكف عن القهقهة إلى أن سقطت عليّ، وأنا ما زلت أقبّل قدمها، ثم ساقها، وجعلت أعضعض فخذيها الحاسرين اللذيذين... ثم أخذتها بين ذراعيّ على أرض الغرفة الباردة... ولا أذكر بعد ذلك إلا قولها: «ولكنني مستعجلة، مستعجلة...»

لقد خفت تلك الليلة، بعد ذهاب نجوى: خفت من وجود العمة نصرت في البيت نذيراً لشؤم لا أدريه ولا أفهمه. ما كان يهمني منها لو أنها بقيت تثرثر بشأن أبي، وجدي وأسلافي، إلى ما شاء الله. لربما كان في ذهنها من الأحداث والأصوات والأخيلة ما يملأ الكتب لو كتبت ـ وذهنها كمرجل يفور ويمور ويقذف من بواطنه كل شيء وقد أختلط حابله بنابله. وكنت حتى ما قبل سنة أو سنتين استمتع بما تهذي به وهو ما زال ذا صلة بأشياء معينة، وأسماء معينة. أما تلك الليلة فقد خفت منها، لأنها أوحت إليّ بأنها باتت ترى أكثر من ذلك. وهو أكثر مما أتحمل. أنا لا أريد معرفة الغيب. ولا أريد معرفة المستقبل. ولا أرغب في أن يريني أحد صوراً غائمة عن نكبات محتملة ومصائب قادمة. ولا سيما بصدد من أحب. فالذين أحبهم لا أريد أن أعرف عنهم إلا الساعة الحاضرة، وفي ذلك الكفاية. الساعة الحاضرة! هل ثمة ما هو أروع منها! وليذهب المستقبل بقضّه وقضيضه إلى الجحيم!

لم اسمع صوت العمة نصرت لبضعة أيام بعد ذلك. فهي في شقتها العليا مكتفية بذاتها، ما دامت صبا تصعد إليها أحياناً، وكلثومة تأخذ طفلتها معها وتجالسها ساعة أو ساعتين كل يوم. وقد اعتاد نبيل أن يصعد إليها في بعض الليالي ويصغي إلى مونولوغاتها الطويلة، فيطلع في أجزائها الشتيته على تفاصيل عائلية يجد في معرفتها ما يعزّز صلته بأسرة زوجته. أو هكذا يقول. ولكن فرحتها الكبرى كانت دائماً بزيارات أخي صفاء، على قلّتها. «أبي، أبي بعينه!» تقول له. تنهض وتقبل خدّيه، وهو يضاحكها ويترك لها (دون علم منا ـ ولكننا نعرف فيها بعد) مبالغ نقدية كانت بدورها

تعطيها هبة لصبا، أو تعطيها لسعيد ليشتري لها لست أدري ماذا. ولم يفتني أن أحد أسرار اهتمام سعيد وزوجته بها، عدا عن ولائهما للأسرة، هو هذه المبالغ التي تنتقل خفيةً من كفها إلى كف سعيد أو كلثومة. هنأهما الله بها.

وصبيحة ذات يوم، وقد أتاني سعيد إلى المائدة بصحن فيه بيضتان مقليتان أريد أن أتناولهما بسرعة لكي لا أتأخر عن موعد محاضرتي الأولى في الأكاديمية التي تبدأ في الثامنة، رأيت العمة نصرت تدلف إليّ، مرتديةً ثوبها الأبيض هذه المرة، وكعادتها تقف بالباب وتقول بما يشبه الهلع: «أين صبوة؟ أين صبوة؟»

فامسكت عن الأكل، وقلت: «عمتي؟ صباح الخير، أولاً.»

اجالت عينيها في الغرفة كمن يرى ولا يرى، وأعادت السؤال: «أين صبوة؟ أريد صبوة!»

ـ تعرفين أنها في القسم الآخر من البيت.

ـ نادوها، نادوها حالاً... لم أذق طعم النوم طيلة الليل...

فتشاءمت من لهجتها، وناديت سعيد، وقلت له: «اذهب وقل لصبا أن تأتي لعمتها بسرعة.»

وعندما خرج، سألتها: «خير، إن شاء الله! لماذا لم تنامي يا عمتي؟»

ضربت صدرها بقبضة يدها، ورأسها يتمايل يمنة ويسرة: «يا ويلي عليك يا صبوة، يا ويلي عليك...»

ـ اف! عدنا إلى الكلام الفارغ! أصعدي إلى غرفتك، واستريحي. سأرسل صبوة إليك.

غير أنها بقيت واقفة بالباب، وراحت تقول بصوت غريب، صوت واضح النبرات ولكنه يبدو قادماً من أعماق دهور سحيقة: «لم يبق خير في الدنيا، لم يبق خير في هذا البيت. أبي مات. وزوجي مات. وأخي مات. والحبل على الجرار... الله يحفظك يا علاء. الله يصونك ويحرسك. الله يحفظك يا صفاء، يا أدهم... يا ويلي عليك يا صبوة... سبعة شياطين

تتعارك عليك طيلة الليل. . . يا حبيبتي يا صبوة.»

فصحت بها، وقد انفجرت غضباً: «كافي! كافي! أهلكتنا بشياطينك! لا أريد أن اسمع هذا الكلام الفارغ. . . اطلعي إلى فوق، وخلصينا! اف!. . .»

وتركت مكاني، وهممت بالخروج. ولكنها بقيت واقفة بالباب، وكأنها لا تسمع صراخي. «احضروها لي. احضروها. . .»

ثم استدارت ومشت ببطء نحو الدرج. وعاد سعيد إليّ يهز رأسه، ويقول: «صبوة خرجت قبل ربع ساعة. وكذلك عمي نبيل. خرجا معاً، تقول كلثومة، بسيارتها.»

كانت عمتي ما تزال عند أسفل الدرج، فقلت له: «أفهم العمة نصرت ذلك.» ثم أخفضت له صوتي: «ولا تلّح معها. يبدو أنها مضطربة.»

وإذا هي تبدأ بالصعود وتقول: «سأكون في انتظارها. حفظك الله يا صبوة. كان الله في عونك يا حبيبتي.»

فرددت ساخراً، مقلداً لهجتها، وكأنني بذلك أدفع الخوف عني: «حفظك الله يا نصرت. كان الله في عونك يا حبيبتي. . .» وتمتمت لنفسي: «وفي عوننا جميعاً على هذا الجحيم!»

واجتاحني حنين عاتٍ إلى نجوى، أوسّد رأسي بين كتفها وعنقها، وأغمر وجهي بشعرها، وأشكو لها أحزاني وأحزان البشرية كلها.

[١٧]

في أوقات كثيرة أبالغ في الحياد والقسر، فأقول لنفسي: «العمة نصرت معتوهة، ويمكن للمعتوهين أن يثرثروا ويسرفوا في الثرثرة إلى الحد الذي قد يقولون عنده شيئاً ويصدق، لكن العاقل لا يتوقف عند هذه الأجزاء الصغيرة المتناثرة من الحقيقة!» وانتهي بعد تفكير طويل إلى اعتبار العمة نصرت معتوهة. ولا شيء غير ذلك.

لكن ما أكاد أطمئن إلى هذه الحقيقة حتى تصدمني مجموعة من الوقائع التي تزعزعني: كيف عرفت بجرح نجوى؟ كيف تنبأت بموت أبي؟ ولماذا هذرت ذلك الصباح وملأت الدنيا ضجيجاً وهي تسأل عن صبا؟ وكيف عرفت أن مستودعاً للأخشاب يملكه صفاء قد احترق قبل أن يعرف أي انسان آخر؟

إزاء كثير من الوقائع، والتي تغيب في الضجيج ومحاولات تغليب العقل، لا تلبث أن تسقط القناعات القديمة وترتفع على أنقاضها تساؤلات أخرى: كيف أفسر وكيف أعلل النبؤات الكثيرة التي تتوالى؟ وإذا توقعت رعباً قادماً، ألا يبقى سيفاً معلقاً فوق رقابنا لا ندري متى وبأية صورة سيقع؟ وهل يكفي أن أصف العمة نصرت بالبله لكي استريح وأختم على تلك التساؤلات؟

ذات مرة، وكنت قد قررت أن أغادر البيت إلى الكروم في عين فجار، لكي اقضي في الجبل بضعة أيام، بعيداً عن ضجة عمورية ومتاعبها، وبعد أن طلبت من سعيد أعداد ما أحتاجه من ثياب وبعض الأطعمة، جهزت أوراقي وبعض الكتب، وكدت أن أغادر دون أن يحس بي أحد، وإذ بالعمة نصرت تدخل. كانت عيناها نصف مغمضتين وكانت تتمتم بأدعية وكلمات غامضة، ولما حاولت أن ابتسم أو أتكلم رفعت إليّ يديها طالبة مني السكوت والانتظار إلى أن تنتهي. امتثلت. كنت قد

تعودت منها مثل هذه التصرفات، ولكي لا أخلق سوء تفاهم أو معركة ظللت أنظر إليها صامتاً، وبعد وقت لم يطل كثيراً بدأت تقترب، ومع كل خطوة تستعيد نفسها من الغيبوبة التي كانت فيها، وفي اللحظة الأخيرة نفضت رأسها بقوة كمن يحاول أن يستفيق أو كمن يطرد عن نفسه روحاً شريرة. ظللت صامتاً أرقب المشهد بنوع من الضيق. قالت وهي تمسك كتفي وتهزني:

ـ اذبح يا علاء. . . الدم يطهر كل شيء . . اذبح!

رددت وراءها باستغراب وتساؤل:

ـ اذبح؟ اذبح ماذا؟

ـ اذبح خروفاً. . ديكاً. . المهم أن ينزل الدم.

قلت بنفاد صبر، وقد بدأت اللعبة تثيرني وتضايقني:

ـ عمتي. . يمكن لسعيد أن يذبح أي شيء. . وسوف يأتي بجمل ويذبحه!

توقفت لحظة، ثم تابعت بسخرية:

ـ استريحي في غرفتك، وسوف نغرق البيت كله بالدماء!

قالت بحدة:

ـ أتمزح؟ كان أبوك وجدك، كان السوالمة كلهم يذبحون إذا ضاقت الدنيا وخيّم الشر!

قلت بسخرية:

ـ الدنيا بخير. . والشر في عيون الشيطان. . ثم أن سعيد سيذبح!

وما كدت أبعدها بيدي قليلاً لكي أخرج حتى صرخت:

ـ علاء. . لن أتركك تذهب.

إنها إحدى المرات القليلة التي تسلك فيها العمة نصرت هذا السلوك. لم تكن تتدخل في أموري، ولم تكن تعرف متى أغادر، ومتى أعود،

كما لا تعرف إلى أين ذهبت ولماذا. هذه المرة بدت شديدة الاصرار إلى درجة تثير الاستغراب. وفي محاولة لأن تمنعني ركضت هي نحو الباب وأغلقته واستندت إليه بظهرها وبدت مضطربة. قلت بحدة لكي أنهي كل شيء:

ـ عمتي، يجب أن أذهب إلى عين فجار. سأقضي في الكروم أياماً وأعود، وبعد ذلك يمكننا أن نتفاهم ونتفق على كل شيء!

بصعوبة، وبعد جهود كبيرة، تخللتها رجاءات ودموع، خرجت، ولكن كلمة واحدة ظلت ترددها العمة نصرت، حتى بعد أن غادرت الغرفة ثم الممشى الطويل باتجاه الباب الخارجي:

ـ الله يحميك ويبعد عنك عيون الظلام!

وبعد أن أغلقت الباب الخارجي ورائي سمعتها تقول:

ـ الله يحرسك!

وقبل أن أبلغ سيارتي، وجدتني أعود من الباب الخلفي إلى الدار، وآخذ بندقية الصيد التي أحتفظ بها في غرفة نومي، مع الخراطيش، وأخرج.

استعيد الآن هذه الوقائع لأن ما تلاها زاد في نفسي التساؤل والخوف. فأنا ما كدت أرتب أموري في الدار القديمة، وما كدت أضع ثيابي في الدولاب، وأفرد أوراقي على المنضدة ثم أرتمي على السرير لكي استريح، حتى أحسست شيئاً لزجاً دافئاً يتمدد إلى جانبي على السرير. قفزت مرعوباً ونظرت. كانت حية سوداء لم أر في حياتي واحدة بحجمها وقبحها تتمدد ثم تتحرك. كانت تنظر إليّ باستفهام. ولفترة غير قصيرة تملكني العجز، جمدت مكاني، لم أعرف ماذا أفعل، لكنني تراجعت لا شعورياً، ولا أعرف كيف تناولت البندقية وأطلقت عليها النار. لا أكاد أصدق ما حصل، لكن هذا ما وقع بالضبط. وقد تساءلت فيما بعد: ما الذي جعلني أحضر بندقية الصيد في ذلك اليوم بالذات؟ أي هاتف خفّي استجبتُ له، وأنا لا أعي السبب؟

في نفس اليوم، قبيل الغروب، قررت العودة إلى عمورية، على عكس ما كنت صممت عليه، وما كدت أصل إلى البيت، حتى رأيت العمة نصرت من نافذة غرفتها العليا، تنتظر بلباسها الأبيض، وكأنه الكفن، وسبحتها الطويلة في يدها. وقبل أن أصل إلى غرفتي كانت تهرول كالكرة اللينة لتلتقي بي، ثم تهجم علي وتقبلني وتبكي. كانت لا تصدق عينيها، تبتسم وتبكي في وقت واحد، وبين آن وآخر تمد يدها إلى ذراعي، أو صدري، تتلمسني وتتأكد من وجودي. وأخيراً قالت:

ـ قلت لك لا تخرج!

وهزت رأسها عدة مرات، ثم أضافت كأنها تكلم نفسها، قبل أن تعود إلى غرفتها:

ـ الله سبحانه وتعالى نجّـاك. لقد رأيت كل شيء! نجاك الله من التالية!

كنت لا أزال، بعد ذلك بثلاثة أيام أو أربعة تحت وطأة حالة نفسية ثقيلة، ولم أكن مستعداً للحديث طويلاً مع أحد. كنا نشرب القهوة في الشرفة الغربية عند الصباح، وفي حضني كتاب أحاول أن أقرأه، عندما قالت عمتي نصرت، وهي تضحك بفرح:

ـ قلت لك يجب أن تذبح.

تظاهرت بأني أشغل نفسي عنها بالكتاب المفتوح بين يدي، غير أنها استمرت في الكلام، وما عاد يهمها سمعت أنا أم لم أسمع. قالت إنها كانت تعرف أن عدوّاً يرقد في سريري، وأكدت لي أنها صرخت، وأحرقت بخوراً، وضربت بجمع يدها على ظل تكثف أمامها. وبقيت فترة غير قصيرة خائفة. ثم لما أجهزت على العدوّ، وتأكدت من موته، بكت من الفرح!

لم أعلّق. لم أقل كلمة واحدة. والعمة نصرت التي بدت أول الأمر مهتمة بأن تعرف إن كان هذا فعلاً ما وقع أم لا، كانت شديدة التأكد من وقوعه فلم تلح كثيراً في السؤال أو الاستفسار. وأخيراً قامت، وحدقت بي

بعينيها العمشاوين، وتمتمت: «عسى أن تكون تلك آخر عدوّ في سريرك!» وانسحبت من الشرفة.

هذه الوقائع تركت في نفسي كثيراً من القلق والحيرة ورغم أني ظللت أحارب بشراسة، وأرفض تصديق الكثير مما تقوله العمة نصرت، وأرفض أكثر من ذلك الوقوع في شرك الخرافات والتصوف والطرق، فإن أموراً غامضة ظلت تخيم على جو البيت، وجعلت أتساءل مكرهاً أليس صحيحاً حديث العمة عن أن أرواح السوالمة الأوائل تحوم هائمة جاذبة ـ وبعض الأحيان مروعة أو مستغيثة، كأن حالة من الشر أو الخطيئة ملأت المطلة وعمورية وعين فجار، ومدن الجبال والسهول، وتوغلت إلى أماكن أخرى أبعد من عمورية؟ وجعلت أتصور أن حالة الشر أو الخطيئة هذه التي ملأت جميع الأمكنة، لا يمكن أن تزول وتنتهي إلا إذا فعل السوالمة الجدد شيئاً ـ شيئاً مهماً وخطيراً، لكي يطردوا العدوّ ويتغلبوا على الذين صنعوا الشر. تماماً كما حصل قبل أكثر من مئة عام، حين كان الجد الأول للسوالمة يجوب الجبال والأودية، لا يخاف الجندرمة ولا الظلام، ولا يستطيع النوم أو الراحة ما دام هناك ظلم أو خيانة! وما الذي كنت أنا استطيع أن أفعله، سوى أن أعود إلى منضدتي، وأعانق شكوكي وتساؤلاتي، وأكتب، وأكتب...

[١٨]

لكي لا أقع في الفخ الذي نصبته عمتي نصرت، وأحاول الاثبات أن لا شبه أبداً بين جدّي وأخي صفاء، سواء في ملامح الوجه أو نظرة العينين، عليّ أن اعترف أن شبها عكسياً ما يجمع بينه وبين أبي، قد لا يكون هذا الشبه ظاهراً من النظرة الأولى، أو من النظرة السريعة، لكنه مع ذلك موجود بكل تأكيد. صحيح أن الاختلاف بينهما شديد، ويكاد يعلن عن نفسه في كثيرمن المظاهر والتصرفات، في النظرة إلى الحياة، كما تعبر عنها الأفعال الحقيقية وليس الكلمات، في العلاقات التي يحاول كل واحد منهما أن يقيمها مع الأخرين، وفي طريقة التصرف تجاه النفس وتجاه العالم. فأبي كان يعتبر المال وسيلة في هذه الدنيا، ولم ينظر إليه في يوم من الأيام كقيمة مستقلة أو مقدسة، بل ويبلغ به الأمر، في بعض الأحيان، درجة احتقار المال وعدم الاكتراث به. ولكن ما دام يملك مالاً فلا بد أن يتصرف به بطريقة حكيمة. والحكمة لا تعني أبداً بالنسبة له الحرص أو عدم الانفاق، وإنما التمتع. كان يريد أن يتمتع إلى أقصى حد، وكان يريد أن يشاركه الآخرون هذه المتعة. ولذلك وصلت إلى يد أبي كميات كبيرة من المال، غير أن هذه الكميات رحلت من بين يديه، كأنها طيور لا تعرف التوقف إلا لفترة قصيرة، تعاود بعدها الرحيل بحثاً عن أمكنة أكثر اطمئناناً ودفئاً.

هذه الطريقة التي أتبعها أبي بمقدار ما كانت تكسبه الأصدقاء، كانت تثير الكثيرين أيضاً. وصفته عمتي ذات مرة بالطائش. وكانت تحرّض صفاء على تولّي الأمور المالية، ومنع أبي من التصرف. أما الحجة التي تذرعت بها فكانت بسيطة للغاية: نظره أصبح ضعيفاً، وعينه لا تميز بين البارة والمجيدي. هـكذا كانت تردد، خاصة حين تسمع القصص الكثيرة التي تروي عن إسرافه وتبذيره.

صفاء، الذي يكبرني بست سنوات، يلتقي مع أبي بنقاط كثيرة،

ويختلف معه بأخرى. المال بالنسبة لصفاء أكثر من كونه وسيلة للمتعة: إن له جمالاً خاصاً. كان يقول وهو يضحك بفرح:

ـ الفلوس حلوة.. الفلوس تخلق البشر. وأكبر كذّاب من يكره الفلوس!

لكن صفاء لم يكن بخيلاً. بل كان كريماً أحياناً إلى درجة تثير عمتي أيضاً، ولكنه يعرف متى يتوقف، وكان هذا يطمئنها. كانت نظرة أبي إلى المال بسيطة: المال يخرّب، يفرّق بين الناس، ويحمل شيئاً من القذارة. كثيراً ما كان يتصرف كالأطفال، إذ يخرج من جيبه مقداراً كبيراً ويمد يده للآخرين لكي يأخذوا منه. وهذه الطريقة، بقدر ما تدلل على اللامبالاة وعدم الاهتمام، تخلق ردود فعل سيئة لدى الكثيرين. قال له صفاء ذات مرة:

ـ كلهم يعرفون إنك تملك مالاً، لكن أن تخرج الفلوس بهذه الطريقة عيب. إضافة إلى أنها تُطمع الناس فيك!

نظر إليه أبي باستغراب وتساؤل. فتابع صفاء:

ـ لا حاجة إلى إخراج كل هذه الفلوس. ورقة واحدة تكفي.

قال أبي بغضب:

ـ وكيف تريدني أن أعرف الدينار من العشرة؟

ـ الدينار يكفي. ولا حاجة للعشرة.

ـ خرّبتك الدنيا يا ابني! ما الذي ستفعل بك الأيام القادمة!

في وقت من الأوقات، وقد حصل ذلك في فترة متأخرة، توقفت المناقشات بين الاثنين، توقفت لا نتيجة اقتناع أحدهما بفلسفة الآخر، وإنما لشعور كل منهما بعدم جدوى الكلمات، ولأن المال قلّ بين يدي أبي، ولم تعد المشكلة التي تثير هذا المقدار من الصخب قائمة. ومع ذلك ظللت أراقب بانتباه وصمت. أبي ظل على عادته: ما أن تصل إلى يده مبالغ من المال حتى يحاول التخلص منها وكأنها عبء أو خطيئة، يعطي دون توقف ودون انتظار. أما صفاء فكان يمتلك عقلاً عملياً، حسب التعابير الشائعة

هذه الأيام، إذ كان يبدو للكثيرين كريماً، بل ومسرفاً. أما بالنسبة لي فكان يبدو بشكل آخر: لا يضع الفلس في مكان إلا ويريده أن يكون كالبيضة، ينتظر منه أن يفرّخ ويتكاثر. هذه القناعة وصلت إليها في وقت متأخر، ونتيجة مناقشات مضنية، وإن كانت هذه المناقشات تجري أغلب الأحيان بعيداً عن الحديث المباشر عن المال. كان صفاء يريدني أن أكون رجلاً عملياً. هذا التعبير، «الرجل العملي»، شديد الإغراء بالنسبة له. أما ما هي صفات هذا الرجل، فإنها تتخذ صيغاً وأشكالاً لا حصر لها، وحسب الحالة التي يريدها صفاء. الرجل العملي بنظره في بعض الحالات هو ذلك الذي لا يمانع في سماع أبيات من الشعر أو حتى حفظها، لكنه يصبح غير عملي، بل أبله، إن هو فكر يوماً في نظم الشعر. والرجل العملي هو الذي لا يبدأ من الصفر، وكان يصر على هذا التعبير، ولا يسير خطوة خطوة. أما الذي يفكر ويتصرف بطريقة الفقير القانع بأقلّ النتائج، فإنه انسان لا أمل فيه، وخير له أن يرمى إلى الكلاب. والرجل العملي بنظر صفاء هو الذي يفكر بنفسه وبيومه ويبتعد عن الأحلام والسياسة ومشاكل الآخرين. أما إذا غرق في الأحلام والسياسة ومشاكل الآخرين، فلن يحصد سوى الخيبة ووجع الرأس.. إضافة إلى الفقر المؤكّد!

كان يروق له أن يسخر من عملي السياسي ومن قناعاتي، ويفعل ذلك أحياناً أمام الآخرين، خاصة أمام أبي، وكأنه يحرضه عليّ. وإذا كنت قد تعودت منذ وقت طويل أن أظل صامتاً أو قليل الكلام أمام أبي، فإن طريقة صفاء والحاحه كانا يثيراني، فاكتفي بكلمات مقتضبة لكن جارحة، لكي أمنعه عن مواصلة الحديث. وأبي الذي كان يراقب مثل هذه المناقشات صامتاً أغلب الأحيان، أو يقول بضع كلمات مؤيدة لصفاء، كانت تصدر من عينيه نظرات كنت أفهمها تأييداً لي، أو على الأقل دليلاً على عدم الاعتراض. أما حين يسأل صفاء عن «العمل والنتائج» فإن ذلك يعني أن يكف عن مواصلة الحديث الذي كان فيه، ويعني في الوقت نفسه نوعاً من التحريض. وكنت أشعر أن أبي يريد أن يقول، دون كلمات، إن هذين الولدين، كلا على طريقته، لم يعودا امتداداً للسوالمة، قطعاً.

هل أحمل حقداً على صفاء؟ هل أشعر بالغيرة منه؟ استطيع أن أقول إن حباً قوياً يشدني إليه، ولعل أبي بالذات إذ أقارن صفاء به، هو الذي جسّم لي أخطاءه وحماقاته. كنت أريده أن يكون أفضل مما هو، أكبر نفساً وأكثر نبلاً. وكنت أحس أن وجود خلافات بيننا، حتى لو لم نعلنها، أو لم نكشفها، سوف تفرقّنا في يوم من الأيام. أحس الآن، أكثر من أية فترة مضت، بأننا مختلفان جداً. ولم نكن كذلك حين كنا صغاراً. في ذلك الوقت كان صفاء أقرب بكثير إليّ، يدافع عني، يحميني، يتستر على أخطائي، بكلمة واحدة: كنا نواجه العالم معاً. أشعر الآن اننا مختلفان، أو أننا في أحسن الأحوال، لم نعد كما كنا. إنه الآن ينظر إليّ بتساؤل ويأس. يريدني أن أتغير... وأنا، بمقدار ما كنت أحب صفاء، جعلت أخشى أن نصل إلى درجة يمزّق عندها كلانا الآخر بالأسنان. الا يجوز أن تكون الأمور المالية، ومنها البقايا التي كان يملكها أبي وعمتي في المطلة وعمورية، سبباً في ذلك؟ ولكن صفاء يمتلك الآن الكثير. وكل خلاف أو احتمال خلاف حول المال، عند وفاة أبي، كان سابقاً لأوانه. ومهما يكن، فإن أبي ترك لنا عدة مفاجآت بعد موته وفرّت علينا خلافاً كذاك. (وهل أنسى يوم جاءتنا أخيراً، زوجته الأخرى، الراقصة السابقة، ساكنة الرابية، تطالب بحصتها من ميراثه؟ كنا حتى ذلك اليوم نتجاهلها بإصرار، نرفض الاعتراف بوجودها. حتى اسمها زهور كان ذكره محظوراً في البيت، ولا نعرفه كاملاً، ولا يجرأ أحد على النطق به إلا عند أقصى الضرورة. كانت يوم جاءتنا، على الأقل في الخمسين من عمرها، ولكنها تبدو أصغر من ذلك بكثير، وما زالت تملك ذلك الجمال السوقي، تلك الجاذبية السليطة العين واللسان والحركة، التي يجدها العديد من الرجال مثيرة. ومن كان يرافقها في زيارتها؟ شاب طويل، وسيم، في حوالي السابعة والعشرين قالت إنه أبنها الوحيد من «زوجها» الأول، وأضافت في الحال انه عاد قبل سنتين من جامعة السوربون، حيث كان زوجها الثاني، زوجها الحبيب نجيب سلوم، ألف رحمة على روحه، ينفق على تعليمه، ونحن لا ندري! «هادي عدّاي السارح» - هكذا قدّم نفسه إلينا بمزيج من الأدب والاستنكاف. وقال إنه يعمل في الدائرة الحقوقية في شركة نفط

عمورية... وكرهته في الحال. كرهته بشدة. ربما لوسامته، أو للكبرياء السخيفة في تصرفه. ربما للسيارة التي جاءنا فيها مع أمه، رينو ١٧. ربما لأنني لاحظت أنه نظر إلى صبا بشراهة، كأن لعابه يسيل توقاً للفريسة. ربما لأنني أحسست أن صبا اضطربت، لذةً، لنظراته...) أكاد أجزم أن شيئاً غير المال كان يولّد في نفسينا - أنا وصفاء - هذا القدر من المرارة والشعور بالضيق، فضلاً عن الاختلاف. السياسة؟ السياسة ليست السبب الوحيد الذي ولّد بيننا هذه الفجوة، ثم ما يشبه الجفاء. صفاء لم يحب السياسة في يوم من الأيام. كان ينظر إليها نظرة هي مزيج من الخوف والاحترام العميق والكراهية، وهو بمقدار ما كان يريد الابتعاد، كان يتزلف. كان يقترب من الجانب الآخر. أتذكر الحماس الذي كان يبديه وهو مراهق في كثير من المناسبات الرسمية، كيف يلبس ثيابه الجديدة ويكون أول الذاهبين للاستعراضات، كيف يتبرع حين تطلب السلطة ذلك، وكيف يتصبب عرقاً وهو يثبت العلم في ساحة المدرسة في عيد الدولة. ثم ما صار يبديه فيما بعد من مودة مبالغ فيها تجاه كل ما يمت إلى السلطة. حتى موظفا الكهرباء والماء، باعتبارهما ممثلين للسلطة، كان يتعامل معهما بمودة زائدة، ويبالغ كثيراً في الثناء على أعمال الحكومة.. دون أن يحس به أحد!

قلت له ذات مرة، وقد دق شرطي بابنا يسأل عن جار مطلوب للمحكمة:

- هذا مجرد شرطي. واصرارك على دعوته، ثم ذهابك معه إلى قرب بيت الجار، عمل غير مناسب!

قال، ولا أزال أتذكر ذلك جيداً:

- إنه ممثل الحكومة. وأنت تعرف معنى الحكومة.. الا تعرف؟

لو أني أصبحت شرطياً من نوع ما، أي لو أصبحت امتداداً لسياسة التي ترضي أو تقنع صفاء، لاعتبر موقفي عاقلا وذكياأو، حسب تعبيره، موقفاً عملياً، أما أن اتخذ ذلك الموقف الرافض، وأن اشتم الحكومة أحيانا

دون تردد وبصوت عال وأمام الآخرين، وأن أعلن التحدي ورغبتي في أن أغير هذا العالم القائم، فكان يثير صفاء ويخيفه في آن واحد.

فلأفترض اذن أن السياسة أحد الأسباب التي تفرّقنا - أو على الأقل تباعد بيننا. لكن هذا السبب، إذا كان صحيحاً في وقت من الأوقات، فإنه لم يعد كذلك فيما بعد. أصبح صفاء يدرك، استناداً إلى كثير من المعلومات والقرائن، وليس اعتماداً على الحدس، أو التقدير المبهم، أني تمزقت سياسياً، أي بكلمات أخرى، هجرت كثيراً من قناعاتي وعلاقاتي السابقة، لأني اكتشفت، في وقت متأخر للأسف، أني كنت أحمل في داخلي مجموعة من البلاهات وعلى كتفي مجموعة من الجيف. أحاول الآن أن أعزّي نفسي، استعمل كلمات كبيرة لكي أتوصل إلى قناعة من نوع معين: تعلمت الكثير، استفدت خبرة لا تقدر، عرفت معنى الحياة. ويمكن أن أضيف أوصافاً أخرى لكي أخلص إلى نتيجة: ليس كل عملي السابق حماقة، وليست كل علاقاتي الماضية جثثاً متحركة.. قد تتاح لي فرصة مراجعة هذه التجربة في وقت من الأوقات لكي استخلص منها «الدروس والعبر»، وقد تتاح قرائن ومعلومات جديدة تثبت صحة تقديراتي حول قضايا معينة وأشخاص معينين. . الآن وأنا أتحدث عن تلك الفترة أشعر بخيبة كاوية، أشعر بما يشبه الوقوع تحت فعل الخديعة. لقد أدرك صفاء في فترة من الفترات أن خيوطي تقطعت، أن عالمي القديم انهار. أما الصوت العالي، أما المجابهات الحادة، اما تلك النظرات الحمراء التي ميزت مناقشاتنا خلال فترة طويلة، فقد انتهت تماماً. حل مكانها ذلك التأمل الصامت، وهزات الرأس التي لا يمكن أن تفهم أبداً. وحل مكانها أيضاً ذلك الضيق الذي ولّد كآبة أراها تمتد وتتسع كل يوم، وهذه الكآبة لا تقتصر على الشك بالآخرين أو بناء الحواجز بيني وبينهم، إنها تطال كل ما يحيط بي، فلا الطبيعة الآن هي الطبيعة التي كانت، ولا لهيب الشمس الذي يندلق من السماء الآن يشبه ذلك اللهيب الذي كان يدفعني بمتعة في أوقات كثيرة سابقة لأن أقطع المسافات راكضاً وأتحمل الأعباء.

لقد اختلطت الصور والذكريات في رأسي وقلبي إلى درجة لا

أستطيع معها أن أواصل حديثاً هادئاً. .

أحس، بغموض، أن صفاء كان مسؤولاً عن قسم مما حدث. صفاء يتميز بشيء أساسي، وهذا الشيء لا يتنازل عنه ولا يخطىء فيه. إنه المثابرة. كلماته الساخرة، وبعض الأحيان نظراته أو تعليقاته العابرة، كانت تفعل الكثير. صحيح أني كنت عنيداً وكنت أتحدى، ولكن بتراكم الكلمات، بتكرارها، ثم بتلك الخيبات التي أخذت تندفع كالطلقات الطائشة حولي، ولّدت في نفسي شعوراً عميقاً باللاجدوى.

[١٩]

في ذلك المساء البعيد، مطر أول الخريف ينهمر بغزارة، رائحة الأرض تنفجر كما لو أنها رائحة الولادة أو الموت. الأطفال بصخبهم المذهول وانفعالهم الحاد يملأون نهاية النهار وبداية المساء بأكثر من الصراخ وأكثر من الضجيج. كان الأطفال، دون وعي، يلامسون البدايات الأولى للأشياء. لا يلامسونها فقط، كانوا يصنعونها أيضاً، فالوقوف الطويل تحت المطر، والاغتسال الحار بتلك القطرات التي تهبط ثقيلة من السماء، بعد الرعد والبرق، وذلك الركض الحافل بالرعونة، كان ذلك يولد لديّ أحاسيس قوية تحثني على فعل شيء غير عادي!

لم يكن الأطفال وحدهم الذين يولدون تلك المشاعر. فالمراهقون الذين كبروا في غفلة من الآخرين، والذين أحسوا بذلك قبل غيرهم، من خشونة الأصوات والأحلام المبكرة، وفي ارتفاع الصدور أو توتر الأعضاء، ومن أمور أخرى كثيرة، وأبوا أن يشاركوا الأطفال صخبهم، كانوا مستعدين لأن يفعلوا أكثر مما يفعل الأطفال لو أنهم في أمكنة أخرى وأوقات أخرى - هؤلاء المراهقون والمراهقات ارتفقوا حواف الأبواب والنوافذ، وراقبوا بإمعان وتأمل كل شيء، وامتلأوا بالتساؤلات والأحلام والتوق، وعبرت صدورهم عشرات الأفكار الغامضة.

أظن أنني، في ذلك المساء البعيد، كنت قد تجاوزت الطفولة. ومحاولاتي في إنبات الشعر فوق شفتي لم تكن قد نجحت بعد، رغم المرات الفاشلة التي استعملت فيها ماكنة الحلاقة التي يستعملها صفاء. كنت أراوح في تلك المسافة الحادة المؤرقة، بين الأحداث والرجال. كنت أقرأ وأحلم، وبعض الأحيان اكتب سراً أبياتاً من الشعر، وكنت أركض لأدخل عالم الرجال. تتداخل الصور في ذاكرتي، لكن ما أتذكره بوضوح حاد هو ذلك المساء المنهمر بأول أمطار الخريف، وعمورية التي كانت تغرق في غبار أواخر الصيف والحصاد، ثم الجفاف الذي بدأت نذره تحوم في الجو،

كانت تخلق شهوة للفعل. فبعد البرق الحاد الغاضب جاءت الرعود. كان صوت الرعود صاخباً أخاذاً ويحمل معنى التهديد والارهاب. والأطفال الذين انتظروا بلهفة، وكانوا يحرصون على البقاء متقاربين بدوا غير خائفين وهم يتراكضون ويصرخون، أو يحاولون التغلب على الخوف بالحركة الزائدة والصراخ، ورأوا في كل ما يجري امتحاناً وتجربة من نوع جديد.

ما جرى لم يكن شيئاً غير طبيعي، ولم يكن يجري للمرة الأولى. وإذا تجاوزت بعض المقاييس قد أزعم، لنفسي على الأقل، أني لم أكن طفلاً ضمن الجموع الصاخبة، كما لم أكن مراهقاً متوحداً أخوض امتحاناً غامضاً عسيراً. كنت قد فرغت لتويّ من قراءة «النبي» لجبران وكانت تلك القراءة، في ذلك الوقت، قد جسّدت في ذهني أفكاراً وصوراً رأيت وضوحها الأخاذ في البرق والرعد، ثم التحدي.

كان يمكن أن استرسل في مواضيع تقع ما بين صخب الأطفال وتأملات المراهقين. أو قد أتظاهر بأني تجاوزت ذلك كله وأصبحت في عداد الرجال، وبأنني أرى من الهموم والأفكار، خاصة من خلال القراءة، ما يرفعني ويجعلني بعيداً عن تلك الأجواء.

ذلك المساء كآلاف الأمسيات التي تشبهه أو تقاربه، ما كان ليخلّف هذا الأثر، بل ما كان ليعني شيئاً خاصاً، لولا أني سمعت صخباً يزداد ويعلو في الطابق السفلي. بعد أن أصخت السمع أدركت أن أمي وعمتي في معركة مع صفاء. وهي هذه المرة معركة أكثر خطورة وحدة من كل المعارك السابقة. اشتبكت الأفكار والتقديرات في رأسي. وخلال لحظات توصلت إلى فكرة مقنعة: استغل صفاء سفر أبي وبدأ معركة جديدة!

ألح كثيراً على هذه التفاصيل لكي أصل إلى نتيجة واحدة: لو أني لم أتدخل ذلك المساء، لو أن أمي وعمتي لم تطلبا أن أكون حكماً، لو لم أكن موجوداً، لأخذت الأمور مجرى آخر. لن يغفر لي صفاء وجودي، ثم تدخلي. فبعد أن سمعت ما كان يدور بين الثلاثة واستمتعت كثيراً بما كان يقال، وربما كنت اشتفي، نزلت بهدوء. تعمدت أن أتنحنح أثناء هبوطي على الدرج كما كان يفعل أبي، ولدقائق ملأ الصمت البيت. . . ربما ظن

صفاء، وأكثر من ذلك ربما ظنت أمي، أن أبي في البيت لم يغادره. إذ كثيراً ما كان يتنحنح أثناء هبوطه الدرج. حين نظرت في الوجوه، وجدت صفاء شاحباً وأقرب إلى الخوف! وبطريقة، هي مزيج من الارتباك والاحتيال البريء والصدفة، قالت عمتي لكي تبدأ فعلاً جديداً:

- نسأل علاء. .

تغيرت لهجة عمتي وهي تتابع:

- علاء أخوك، أخوك ويحبك، وما يقوله نوافق عليه.

نظرت بإمعان، مرة أخرى، إلى الوجوه، وكأني الرجل الأكبر، وأقرأ بنظرات فاحصة ما كان يدور. صمت، دلالة الموافقة على اقتراح عمتي. قالت أمي:

- إذا كان الاختيار غير ملائم فلا تتعبوا أنفسكم.

تغافلت عن كلام أمي. قلت لأواصل لعب الدور:

- أنا مستعد لأن أكون حكماً!

كنا نلجأ إلى مثل هذه الاختيارات في أحيان كثيرة، شرط ألا يكون أبي موجوداً. كنا نختلف ونتفق، لكن كنا دائماً نقبل المراهنة. بدا صفاء محرجاً وكأنه لم يكن يريد وجودي أو لا يوافق على أن أكون حكماً. قالت عمتي نصرت لكي تسيطر على الموقف:

- وعلاء يفهم ويقرأ الكتب كثيراً، وفي تلك الكتب لم يتركوا شيئاً إلا وكتبوه.

ودون انتظار موافقة من أحد، اندفعت تروي القصة.

القصة شديدة الطول والتعقيد، خاصة إذا روتها امرأة مثل عمتي نصرت. تأكدت من الكلمات الكثيرة التي قيلت، ان أخي صفاء لا يزال يصر ويهدد على أن لا يتزوج إلا «تلك الفتاة». لم يذكروا اسمها، لكن بعض الإشارات كان شديد الوضوح والدلالة. وعرفت. . كانت بدرية فتاة جميلة، وقد رفضت كثيرين تقدموا لها، وهي على عادة البلاد التي

جاءت منها، وعلى عادة القوم الذين عاشت معهم، تشبعت بعادات وتقاليد، وهذه العادات والتقاليد لم تكن في صالح أخي صفاء. فهو لا يعرف ركوب الخيل ولا هوس الصيد، ولا الغناء!. هذه هي الأسباب التي قالتها أم الفتاة بارتباك، وقالت إن الأمر غير قابل للبحث بالنسبة لابنتها. هل يمكن اعتبار أسبابها صحيحة؟ صادقة؟ لا أحد يدري. عمتي تؤكد أن بدرية بنت عزيز لم ترفض بصورة نهائية، لكن هذا الرفض الذي أبلغ إلى أبي أدى إلى إغلاق الموضوع. والوحيد الذي رفض التصديق أو التسليم هو صفاء. كان يراهن ويصرّ، وإذا بدا راضياً مسلّماً أمام رفض أبي، فقد كان لا يتوقف لحظة واحدة عن المحاولة، وبخاصة مع أمي وعمتي. وكانت هذه المحاولات تجري بعيداً عن الآخرين، وبأساليب شديدة الالتواء: الإغراء، الاستعانة بالأقرباء، الضغط على أبي لتجديد المحاولة، فضلاً عن الاستعراض البائس الذي بدأ يلجأ إليه في عصارى تلك الأيام: يلبس ثياباً أنيقة وغالية السعر، يمشط شعره بعناية زائدة، وأحياناً يحمل عرقاً من الريحان.. ويمر أمام بيت عزيز الهندي، لعله يراها.. أو لعلها تراه.

تكررت مثل هذه المحاولات مرات لا حصر لها، وبدرية التي كانت تظهر أحياناً قبيل الغروب قريباً من بيتها، ما تكاد تلمح صفاء حتى تتوارى. أما إذا كانت مع رفيقات لها فتتعمد أن تدير وجهها وأن تتجاهله. وصفاء يشتعل، يحترق، يزداد اصراراً، يزداد جنوناً.. وتزداد محاولاته أيضاً. وبدت محاولاته مثيرة للسخرية والشفقة، وإذ كنت أرى ذلك كنت امتلىء بمشاعر متناقضة تجاه ما يحصل: فأنا من ناحية لا أريده أن يصبح ذليلاً إلى هذه الدرجة، وأحسّ من ناحية أخرى مدى العذاب الذي يعانيه. لقد تحول إلى مخلوق آخر، سواء بشكله أو بتصرفاته.

ما زاد في تعقيد الأمور، في تلك الفترة بالذات، وما زاد في ألمي ومعاناتي، هو أني تعلقت بنائلة بنت عزيز الهندي، أخت بدرية الصغرى. أقول «تعلقت» لكي لا أجرح مشاعر صفاء أو أتعالى عليه، وإن أخذت العلاقة صيغة أخرى...

نحن السوالمة نعرف كيف نحترق. نظل ندور حول النار حتى نسقط فيها.

خلال علاقتي مع نائلة عرفت أن بدرية لا تنظر إلى صفاء بعدم اهتمام فقط، بل لا تطيق أن تراه أو تسمع اسمه. أما فكرة أن تتزوجه فكانت تثير في نفسها السخرية، ولذلك لا فائدة من أية محاولة. ومحاولات صفاء المستمرة انما تعرّضه إلى مزيد من الاهانة والتندّر. كنت أعرف ذلك تمام المعرفة، وكنت متأكداً أن كل ما يجري ليس إلا مضيعة للوقت وإهانة لنا جميعاً، ولكن لم أستطع أن أقول ذلك صراحة لأحد، وإن كنت قد ألمحت إلى أمي بأكثر من طريقة لكي تفهم.. ولعل أمي عرفت، أيامئذ، عن علاقتي بنائلة.

كان لا بد أن تنتهي قصة صفاء ذات يوم. وهذا ما حصل. إذ ما كادت بضعة شهور تنقضي حتى هربت بدرية مع أحد الشباب. وكلمة الهرب قد تبدو كبيرة أو غير دقيقة، لأن العادات كانت تتيح قيام نوع من العلاقة.. ثم تنتهي بالهرب تمهيداً للزواج!

هذه القصة، أو قصة مثلها، كان من الممكن أن تنتهي دون أن تخلف آثاراً، ولكن أن يكتشف صفاء علاقتي بنائلة، وأن يقبض علينا ذات يوم وحيدين في بستان أبو زريق، وبعد هروب بدرية ببضعة أيام، كان ذلك إهانة شخصية له!

نائلة بالنسبة لي ذكرى بعيدة، حتى لا أكاد أتذكرها في زحمة الأحداث والوجوه والذكريات. والنهاية التي انتهت إليها علاقتنا، لأسباب لا علاقة لصفاء بها، والمعارك الطاحنة، بيني وبينه، ومحاولاته أن يحرض الآخرين عليّ، وإشاراته غير المباشرة لأبي حول سلوكي وانغماسي في السياسة، ثم ما حصل بعد ذلك، لا يمكن أن أفسر جزءاً كبيراً مما حصل دون أن تلتمع بدرية ونائلة في ذاكرتي - تلتمع كل واحدة على غرارها.

في ذلك المساء - المطر وصراخ الأطفال.. وذلك الدخول المفاجىء. قلت، بعد أن صرت حكماً:

- صفاء، يجب أن تكون عاقلاً، وتكف عن المحاولة. ثم أن استمرار محاولاتك، وبهذه الطريقة، إهانة للعائلة كلها. ولا يمكن أن يرضى بها أحد!

كانت تلك الكلمات مثل السكين. وأنا أرى آثارها وهي تنغرز بهدوء، لكن بحدة، في قلب صفاء.. ثم أرى تشنج الشفتين والحنك. وحين خيم الصمت وطغى على أصوات الأطفال والمطر في الظلمة الخفيفة، رأيت دمعتين تسقطان على خدّي صفاء - ويخرج من الغرفة بعصبية، وهو يصيح: «بقدر رجلي، وينصحني!»

هل كانت كلماتي، طريقة قولها، المعاني التي تكمن وراءها، هي التي دفعته إلى مواقف معينة كثيرة في أوقات لاحقة؟

وأنا.. لماذا اخترت تلك الكلمات، تلك الطريقة في قولها؟ وهل رأى هو معاني من نوع ما وراءها؟ وعلاقتي بنائلة في ذلك الوقت، هل كانت دافعاً لأن أقول تلك الكلمات وبتلك الطريقة؟

ليست بدرية المرأة الوحيدة التي ولّدت بيننا هذه الفجوة. فقد ظهرت بعد ذلك نساء أخريات، ولّدن في قلبه وقلبي مرارة بعد مرارة، دون أن يتحدث أي منّا عنهن يوماً بشكل مباشر.

ولكن نجوى، يا الله! نجوى الحبيبة، الغامضة، الرائعة - هل كانت لها علاقة بذلك، بعد كل تلك السنين؟ في حسابات الجذب والدفع بيني وبين أخي، قد أدخل السياسة، قد أدخل المال، قد أدخل المزاج، النجاح، الفشل، امرأة هنا وامرأة هناك - أما نجوى؟.. لا! حتى خيالي المحموم لن يلتفت في اتجاه كذاك.

ولو أنني يجب أن أذكر الأمور بحقائقها الأولية. فلئن كانت صبا صديقة نجوى، والسبب في الأيام الأولى في رؤيتنا لها في بيتنا مرتين أو ثلاثاً، فإن التقارب إنما كان سببه الحقيقي خلدون، زوجها. كان خلدون شريكاً لصفاء - في إحدى شركات صفاء العديدة التي لم أكن أهتم بتفاصيلها. لست أدري أي نبي كان جدّي الذي تتغنى العمة نصرت

بقداساته ومثالياته - غير أن أخي صفاء، وهي تدعي أنه صورة ناطقة عن أبيها، لم يكن قريباً جداً من القداسات والمثاليات. كان طيّباً إلى أقصى حدود الطيبة، صادقاً في معاملاته مع الناس، ملتزماً بأي وعد أو اتفاق يقطعه على نفسه - ولكنه يعتبر النجاح في الأعمال المالية المثل الأعلى والأوحد الذي يسعى من أجله. حال تخرجه من كلية التجارة أعطاه أبي ألفي ومئة دينار - قبل حوالي ثلاثين سنة، وقال له: «صفاء، إليك هذا المبلغ، ولك أن تحرقه إن شئت! ولكنك لن تحصل مني على مثلة مرة أخرى!» وبرهن أبي بذلك - ولا سيما بعد خيبة صفاء الساحقة ببدرية أيامئذ - على نفاذ بصيرته. لقد أطلق عبقرية صفاء من عقالها.. وما كدت أذهب إلى انكلترا بعد ذلك بأربع أو خمس سنوات حتى كان صفاء أسماً يحسب له الحساب في حياة عمورية التجارية. وعندما عدت، ملتهباً بحماساتي الفكرية والسياسية، أريد أن اقتحم العالم بأفكاري وكتبي، كان صفاء غنياً كبيراً. ويجتذب بين الحين والآخر شباباً واعدين، يشركهم في أعماله ومؤسساته. وكان خلدون عبد العظيم الثغراني، المهندس الميكانيكي، واحداً من هؤلاء. وقد تزوج صفاء، ولو متأخراً، بفتاة تصغره كثيراً - رفيعة النظّام، وهي ابنة أحد شركائه الكبار، عبد المجيد النظام. يعجبه أن يتباهى بشبابها وجمالها وأناقتها كلما سنحت لذلك مناسبة اجتماعية، كأنها ربح آخر حققه في عالمه التجاري المزدحم!

في أعماق صفاء، رغم قدرته على الانغمار كلياً في قضايا الصناعة، وانتاج القمصان واللبان، والمشروبات الغازية، والبيرة، والأواني البلاستيكية، والأحذية، والرخام، ومواد البناء الجاهزة (قائمة منتجاته ومستحضراته من أكبر القوائم في غرفة تجارة عمورية، التي كان رئيساً لها لفترة في أواخر الستينات)، في أعماق صفاء، بقي ذلك الشاب المسكين الذي لم يحظ بفتاة اسمها بدرية، وهو يعلم أن أخاه المراهق استطاع أن يختلي مرات بأختها نائلة (ولكنه لن يصدق أية خلوات بريئة كانت!): فكان دائماً يريد أن يؤكد لنفسه أن ما من امرأة ينتبه إليها، إلا ويستطيع أن يأسرها، بشكل أو بآخر - بسحره المالي، أو سحر علاقاته الاجتماعية المعقدة.

وبعد أن رأى بدرية تتزوج خاطفها، وتتحول من هيفاء لعوب إلى امرأة بادية السمنة، ثقيلة الحركة، كان لا يتورع عن الشماتة (ولو في حدود الأسرة فقط) ويزعم أن الله أنقذه في اللحظة المناسبة من امرأة يتضاعف وزنها كل خمس سنوات! ويُسِرّ إليّ، كلما أثير الموضوع، أن المرأة لا تفهم الحب، وإذا أحبت فإنها لا تحب إلا الرجل الخطأ. «خذها مني، علاء. المرأة في النهاية لا تقدّر إلا القرش، ودع عنك أوهامك الشعرية...» لست أشك في أنه كان ينفق الكثير من ماله على ملذاته: فهو في ذلك يشبه أبي كثيراً، ولكن مع فارق كبير ـ كان أبي عميق الولاء تجاه من يحب، أما صفاء فلا يقيم وزناً لمثل هذا الولاء. ينفق على المرأة بسخاء إذا تعلق بها زمناً، ثم يدفعها عنه بصفعة ضاحكة منه على ردفها. والعبارة التي أتخيلها تتردد على شفتيه أكثر من غيرها، هي عبارته المحببة: «لا عواطف، أرجوك!» ومع ذلك كله فلم أكن دائماً لأخدع بكلامه. بقيت بدرية جرحاً في نفسه لا يندمل. وكلما استقرت عيناه على وجه جميل، حتى بعد زواجه من رفيعة، تمنى في دخيلته لو ينتقم في صاحبته من بدرية... وهو سعيد الحظ بأن زوجته لم تكن قط في هذا الوارد. فهي تنعم بدفء ثروته، وهي ما زالت في عشريناتها، ولم تنجب إلا ولداً واحداً (يدعى «نجيب» باسم أبي)، ولم تسمن بعد... تقضي معظم أصيافها في لندن أو باريس مع ابنها وخادمتها، وتقول إنها تريد أن تتقن الانكليزية والفرنسية في سفراتها الطويلة هذه. (ولا أدري لماذا. لأنني لم أرها تحاول يوماً أن تقرأ كتاباً بأية لغة كانت.)

وقد تعرّف صفاء على خلدون عن طريق حميه، عبد المجيد النظّام، ولست متأكداً إن كان ثمة نوع من قرابة أو نسابة بين أسرة الثغراني وأسرة النظّام. ولكن الذي لا شك فيه هو أن محسن العامري، والد نجوى، كان من أصدقاء عبد المجيد منذ أيام الحرب ـ تلك الأيام التي أتت بغنائم فجائية، مشروعة أو غير مشروعة، للكثير من الناس، وكان أبي واحداً منهم. ورغم أن محسن العامري كان أكبر سناً بكثير من عبد المجيد النظّام، فقد بقيا صديقين حميمين حتى وفاة محسن مؤخراً شيخاً جليلاً ليس له من خلف إلا نجوى. وأكثر من مرة قالت لي نجوى إنها لا تذكره

إلاّ عجوزاً يحبها حب عبادة، وأنها تكاد لا تذكر أمها، لوفاتها ونجوى صغيرة.

في عصر يوم في أوائل الخريف، والمطر يسقط رذاذاً في زخات قصيرة، تكاد تشرق الشمس عليها لحظات من بين الغيوم المتباعدة، فتنقطع، لتعود مرة أخرى مع غيمة زاحفة، وتطلق روائح الأرض: شذى التراب والعشب وأوراق الشجر في نهاية يوم حار مغبّر، خرجت إلى الشرفة لأتلقى الرذاذ الناعم، واستمع إلى الصبية وهم يلعبون في الشارع، ويتصايحون ويغنون لأول أمطار الموسم، ثم عدت إلى الداخل، لأطلب إلى سعيد أن يغلي لي فنجان قهوة. وعندما خرجت إلى الشرفة مرة أخرى، رأيت صفاء يعبر بسيارته أمام الدار، وينعطف داخلاً الكراج.

«متنعم بالمطر؟» قال ضاحكاً وهو يترجل من السيارة. «ألا تخشى البلل؟ أم أنك ـ» فضحكت، وقاطعته: «بالضبط! غريق، فأي بلل أخشى!»

وأخذته من ذراعه ودخلنا إلى غرفة الاستقبال، وجاء سعيد راكضاً يحييه، ثم أسرع إلى المطبخ ليعود بفنجانين من القهوة.

قلت: «ما هذه المفاجأة الحلوة؟ مات يهودي!»

قال: «هل أنا مثلك؟ لا تمر علينا إلا بدعوة رسمية!..»

قلت: «حقك، حقك... وسيارتي دائماً عاطلة، مما يبرر عدم الحركة.»

فقال، وهو يأخذ رشفة من فنجان القهوة: «سيارتك هذه أرسلها إلى المتحف. قطعة أثرية.»

ـ اهتمامي هذه الأيام بدارنا في عين فجار. قريباً ستكون جاهزة.

ـ وستقيم لنا حفلات فيها؟

ـ حفلات؟ العياذ بالله. البيت للحفلات، وهذه الدار للابتعاد عنها.

ـ طيب يا سيدي. خلّ الحفلات علينا. وهاك دعوة رسمية من أخيك صفاء نجيب والسيدة عقيلته... إلى العشاء، يوم الخميس القادم.

ـ جلسة عائلية؟

ـ لا، لا. دعوت عدداً من الناس على شرف أحد شركائي، خلدون الثغراني. تزوج قبل أيام، و ـ

ـ آ، تزوج نجوى العامري. أدري، أدري.

ـ أتعرف خلدون؟

ـ قليلاً. ولكني أعرف نجوى.

وانتصب صفاء في قعدته كمن لدغته عقرب. «أتعرف نجوى؟»

ـ لا تندهش!

ـ أقصد..

ـ التقيت بها هنا، في البيت. إنها صديقة صبا. ألا تعرف؟

ـ بالله عليك؟ لم أكن أعرف... حسبت أنها فتاة جميلة أخرى سبقت أنت الجميع إليها. كالعادة!

وضحك ضحكة غريبة.

كان التظاهر بعدم الاكتراث صعباً. كان التظاهر بأنني لم أناقشها يوماً، ولم تهاجمني، ولم تكتب إليّ رسائل أقفلت عليها الدرج بين أوراقي ـ كان التظاهر بذلك كله صعباً. ولكنني حاولته. ولا أحسب أن صفاء، في عتمة الغرفة التي لم يكن يأتيها إلا ضوء نهاية النهار من خلال الرذاذ والنافذة العريضة، قد لمح أي عاطفة ترتسم على وجهي. أو أي خيبة. فبعد الرسائل التي تبادلناها عشية زواجها، لم أرها حتى ذلك اليوم ولو مرة عابرة واحدة.

وقلت: «أتراها جميلة؟»

ـ جميلة؟ إنها رائعة! ومحبوبة جداً.

ـ صفاء، أخشى أن حفلة العشاء.. من أجلها هي؟ انتظر حتى أخبر رفيعة.

ـ رفيعة؟ رفيعة لا تغار من أحد.

ونهض على قدميه، وأردف: «أنا مستعجل، علاء. عندنا اجتماع مجلس إدارة في الساعة السابعة. قل لصبوة إنها مدعوة هي أيضاً ـ هي

ونبيل. وسلّم لي عليهما.»

وعندما خرجت معه إلى الشرفة، والرذاذ يهمي ناعماً، مسترسلاً، وأصوات الصبية تملأ الطرقات، تذكرت فجأة ذلك المساء البعيد، وصفاء وبدرية، وأمي، والعمة نصرت ونائلة... أما نجوى فلم يكن لها مكان بين هؤلاء. غير أنها أقحمت نفسها فيما بينهم، رغماً عن إرادتي. لماذا؟ لماذا؟ ما الذي كان يعد بيني وبينها؟ أو بينها وبين أي شخص آخر يهمني؟

[٢٠]

لم تكتب نجوى إليّ من القاهرة، ولم أكن أعرف بالضبط متى عادت مع خلدون إلى عمورية، لولا أن صبا أخبرتني وبذلك، وبطريق الصدفة. جاءت إليّ هي ونبيل، وفي يدها قطعة خزفية جميلة كنت برفقتها يوم اشترتها من معرض أقامه صديقي الخزاف سعدون حامد، قبل ذلك ببضعة أشهر. قلت ضاحكاً: «أتريدين أن تهديها إليّ؟»

فقالت: «أأهديك قطعة سيراميك، أم قطعة من حياتي؟»

ـ لا، صبا. قطعة سيراميك تكفيني!

ـ نريد استشارتك. ما رأيك في أن نأخذها هدية لنجوى وخلدون؟

ـ هل عادا من شهر العسل؟

ـ من زمان. وأشعر أننا تأخرنا بالزيارة والتبريك.

فتساءلت، بشيء من المكر: «وهل يقدّران الفن؟ أعني، هل سترى نجوى ـ»

سلمتني صبا الخزفية لأتأملها مجدداً، وهي تقول: «أنت لا تعرف نجوى.. إنها تموت على الأشياء الفنية.»

فأعدتها إليها. «اذن، هذه أثمن هدية.»

وقال نبيل: «ماذا تهدي رجلاً كخلدون؟ عنده كل شيء...»

قلت ساخراً: «طنجرة من الألومنيوم. لكي يعلم زوجته الطبخ.»

فضحك الاثنان. «اذن أنت موافق؟»

ـ «من حيث المبدأ، نعم. ولكن اسمحا لي أن أقول: من المؤسف أن تخسرا قطعة خزفية جميلة كهذه.»

فقالت صبا: «أبداً، أبداً. نجوى تستحق شيئاً عزيزاً نحبه نحن أيضاً.»

وأضاف نبيل: «وكذلك خلدون. يلّا صبا، لفّيها بورق الهدايا.

علاء، أتريد أن نبلغهما تحياتك؟»

فأجبت مرحاً: «ولو! طبعاً. وتبريكاتي أيضاً.» وشعرت في أعماقي شعوراً لئيماً بأنني لن أهديهما ـ وبخاصة نجوى ـ حتى علبة كبريت. لماذا لم تتصل بي بطريقة ما؟ لماذا لم تخبرني على الأقل بعودتها؟

ومرت أيام قبل أن يحل موعد حفلة العشاء التي أقامها صفاء ورفيعة على شرف شريكه. كدت أرفض الذهاب، لولا أن صبا ونبيل أصرا على أن أرافقهما إليها. وأختي تقول: «يجب أن تذهب. إذا لم يكن من أجل أصدقائنا، فعلى الأقل من أجل أخيك... وصفاء زعول جداً، ولا حاجة بي لتذكيرك بذلك.»

فقلت: «طيب، طيب. سأذهب من أجلك أنت، ومن أجل نبيل. غاب عنّي أن أسألكما في حينه: هل راقت لهما المنحوتة الخزفية؟»

قال نبيل: «اختطفها خلدون من يد نجوى حالما كشفت الغلاف عنها، وقال: الله! رائعة! سنجعلها هنا! وانزل تمثالاً قديماً من خانة في الجدار فوق الموقد الكبير، ووضعها فيه..»

أما صبا، فقد نظرت في عيني نظرة مازحة وقالت: «لم أخبرك بماذا قالت نجوى.» وهبطت معدتي لحظتين، وقلت: «أخبريني.»

ـ «أرسلت إليك سلامها، ثم قالت: أسأليه، هل الجني طليق، أم أنه عاد إلى القمقم؟ أو كلاماً بهذا المعنى... ترى، ما الذي كانت تقصد؟»

ـ «ألم تسأليها؟»

ـ «سألتها. فقالت: علاء يعرف.»

ـ أنا؟

وهززت رأسي، متجاهلاً.

ـ «على كل، بلغتك السؤال، والجواب عليك أنت، هذه الليلة.»

غير أنني في دار صفاء تلك الليلة، بعد مصافحة نجوى وخلدون، باعتبارهما ضيفي الشرف، تعمدت الابتعاد عنهما. كانت الحلقة من ذلك

النوع الذي لا يبخل فيه رب الدار بشيء على أحد، وقد خططت زوجته التألق الذي ترجو أن تحسدها نساء المجتمع عليه. فتحت غرف بيتهما الكبير بعضها على بعض، ليتسع للخمسين أو الستين ضيفاً الذين جاؤوا ينافس بعضهم بعضاً في اللباس، والزوجات، والمجوهرات. أما أنا، فلشدة إصراري على عدم اظهار أي اهتمام بنجوى، شغلت نفسي بكلام كثير، وشرب كثير، مع مدعويين لا يهمني عادة أن أقول لهم مرحباً. فأصدقاء صفاء ليسوا أصدقائي، اللهم فيما عدا اثنين أو ثلاثة وزوجاتهم. ولكنني طلبت العون من الخمر، فاسعفتني، ووجدتني أنزلق بين الواقفين والواقفات، والجالسين والجالسات، وكأن النسيم يحملني في الاتجاه الذي أريد: بعيداً عن نجوى. تحدثت في السياسة، وفي الاقتصاد، وعن تمثيلية تلفزيونية سخيفة عرضت في الليلة السابقة أعجب بها المتحدثون. وتحدثت عن الازدحام في طرق عمورية، ورغبتي في الهرب إلى الجبل، وعن البيت القديم الذي كدت أفرغ من تجديده في عين فجار. وبغتة، حالما لفظت كلمة «فجار»، انسابت من خلفي، كقطة بيضاء ناعمة، المرأة التي حسبتها بعيدة في الطرف الآخر من الغرفة، وتجسّدت أمامي، وسيكارتها في يدها.

«هل قلت: عين فجار، استاذ علاء؟» قالت نجوى، وعيناها مسددتان إلى عيني.

فقلت، متخذاً المزيد من الحذر إزاء مباغتتها: «نعم، مدام.» وصرفت عيني عنها. ولكنها أصرت على سؤالي: «بنيت فيها بيتاً؟»

ـ «لي فيها بيت قديم، كان قد تهدم. أعدت بناءه. جددته. مجرد صومعة.»

أخذت نَفَساً من سيكارتها، ونفثت الدخان في اتجاهي (وقلت لنفسي: هائل! لقد أدركت أنني أتقصد الابتعاد عنها!) ثم قالت: «ألن تدعونا، نحن وهؤلاء الأصدقاء، إلى صومعتك يوماً؟»

ـ آسف! الصومعة... صومعة. إنها للعزلة.»

فاستدارت نحو إحدى السيدات قربها، وقالت: «ما رأيك يا عليّة؟ أنقوم بغزوة لصومعته؟» فضحكت عليّة كأن يداً خفية دغدغتها في صدرها: «العياذ بالله! أتريدين غواية الناسك؟»

«ولم لا؟ لم لا؟» قالت نجوى، ونفثت دخان سيكارتها بوجهي مرة أخرى، وانصرفت. وأيقنت، من طريقة تدخينها، أن تلك أول سيكارة تدخنها في حياتها.

لم أتحدث إليها ثانية فيما تبقى من السهرة. ومرّت أسابيع أخرى، لم أرها فيها ولم تأتني منها كلمة. وانصرفت إلى إكمال روايتي، وتأثيث بيتي الصغير في عين فجار. ولكن اللعينة لم يفارقني طيفها لحظة واحدة.

[٢١]

لست أدري لماذا كنت أفرح كلما مر يوم آخر لا أرى فيه نجوى. كنت كمن يوفر قرشاً على قرش يوماً بعد يوم، لينفق في يوم قادم كل الذي تراكم لديه دفعة واحدة. كنت كمن يشحن نفسه باستمرار تهيؤاً لعملية ضخمة ستتطلب منه طاقة كبرى. هذا تصوري الآن، بعد التجربة. أما حينذاك، فكنت أشعر أنني إنما أريد أن أنجز روايتي دون أي تدخل من الشخص الوحيد الذي كان بإمكانه أن يتدخل إن هو أراد. جعلت أكتب كل يوم، ولا سيما في ساعات الليل. استعجل نفسي، كأنني أريد أن انتهي من «شجرة النار» لكيما اتفرغ لأمر مهم فيما بعد، لست أدري ما هو. وكلما كتبت شيئاً للجريدة، وجدتني أكتب أشياء خفيفة لا تتطلب جهداً كثيراً - كأنني قصرت طاقتي الحقيقية على كتابة روايتي.

بعد شهر أو أكثر، أقام نبيل وصبا حفلة غداء لنجوى وخلدون - كان الغداء في غرفة الطعام الكبيرة، في القسم الذي أسكنه من الدار. وقد استضافا أيضاً صادق الرمحي وزوجته، وزميلاً أو اثنين من أساتذة كلية الآداب. وكان صفاء موجوداً دون زوجته. وبدا لي أن نجوى توليه اهتماماً خاص لا يخلو من غنج. أما أنا فتعاملني بالمثل: تقابل برودي (المصطنع) ببرود (مصطنع). وأما خلدون فقد زاد اهتمامه بي: لقد قرأ «النوارس» أخيراً مع أنه، هكذا قال، نادراً ما يقرأ الروايات ولكنه دهش لروايتي، وشكراً لنجوى التي ألحت عليه كي يقرأها. وهل لدي المزيد؟ ووعد أن يقرأ روايتي الجديدة حال صدورها - «ولن اسمح لنجوى باختطافها من يدي إلى أن أكملها.»

لا بد لي من الاعتراف بأنني، في تلك الأيام بالذات، رأيت ناهد عوني عدة مرات، بعد أن عادت من أبو ظبي، حيث كان أبوها يعمل في إحدى المؤسسات الحكومية الجديدة. ولكن تلك قصة أخرى - تكاد تكون محض عائلية، وهي خالية من تلك التوترات (على الأقل، بالنسبة لي) التي

تجعل من كل لقاء انصهاراً رهيباً عند درجة ألف مئوية. كنت فيما مضى أحسب أنني سأتزوجها، وأخذت الآن أماطل. ولم تكن ناهد تقلق كثيراً - ربما لاطمئنانها إلى أنني، عاجلاً أو آجلاً، سأضع خاتم الزواج في أصبعها، هي دون غيرها.

وتكررت الزيارات بين أختي وزوجها، وبين نجوى وخلدون. وفي بضعة أشهر وجدت أنني وخلدون أصبحنا صديقين. لأنني أخذت أزورهما أنا أيضاً. بل وجدت أنهما قد يمران عليّ بدون سابق إنذار، فإذا كنت في البيت قضينا سهرة قصيرة، وهيأنا عشاء مما هو موجود في الثلاجة. وسعيد وكلثومة بارعان في ارتجال عشاء كذاك، باشراف من صبا. ولم يكن من العسير أن أرى أن نجوى تمتحن قوتي - وتحاول كسر مقاومتي. ولم تكن تدري - أم لعلها كانت تدري؟ - أن كلمة واحدة منها كانت كافية لجعلي اسلّمها اسلحتي كلها. ولكنها بدت مصرّة على تحويل ما أردت له أن يكون شيئاً جائحاً، كاسحاً، إلى مجرد صداقة عادية لم أجد يومئذ حتى ما يبررها. هل حسبت أنها تدجّن النمر وتقتلع أنياب الأسد؟ هل راجعت نفسها في القاهرة فقررت أن تعيد الجني إلى القمقم الذي انطلق منه بفعل منها، لأنها أدركت الآن أنه فعل خاطىء؟

إن كان فعلاً خاطئاً ما بدأت به، فإنها (ربما بعد تردد، وتخوف، وتقريع ضمير) كانت مستمرة فيه على طريقتها. لم يخطر لها، أول الأمر، أنها ستفعل شيئاً يمس حياتها الزوجية بأي ضرر. وإذا وجدت فيّ ما يثيرها - ذهنياً، إن لم يكن عاطفياً - قبيل الزواج، فإنها لم ترَ في ذلك مدعاة لتغيير وجهة سيرها - نحو الزواج من رجل وسيم ذي مكانة يحسده عليها كثيرون ممن هم في سنه. وكبحها نفسها عن الكتابة إليّ في القاهرة إنما كان دليلاً على انزلاقها من الانشغال بي ذهنياً إلى الانشغال بي عاطفياً: اذن، فلتبتعد عني، هكذا قررت. فزواجها أهمّ. وفي عمورية، إذ حتّم الجو الاجتماعي علينا اللقاء - ولا استبعد أنها كانت تدبّر لذلك أيضاً، رغماً عن نفسها - فعليها أن تتصرف إزائي بما يدفع عنها تهمة أية عاطفة غير مشروعة، عاطفة «لا تليق» بها. غير أنها وجدت في تصرفي إزاءها ما مسّ

كبرياءها. إذا كان عليها هي أن تبتعد عن مشكلات الهوى الآثم، وقد سبق السيف العزل وتزوجت، فما الذي يوجب عليّ أنا أن ابتعد عن حبها، ولو من جانب واحد، وأنا رجل حرّ، لا زوجة لي ولا التزام تجاه أية امرأة؟ أين الجني الذي هدد بتكسير عظامها، وهي التي سيلذ لها أن تراه وعظامه تتكسر إزاء تمنّعها، إزاء جدار كونها زوجة وفية؟ كبرياؤها أو، كما كانت تقول، غرورها، جسارتها، اقتضت أن تسمّرني في مكاني إزاءها: أراها وتراني وتثير فيّ ايحاءات لن تسمح لي بالجهر بها. لقد حدست بأنني أكذب باستمرار معها، بأن تظاهري مفضوح، وأن النار الصغيرة التي أشعلتها في ثيابي (في ثيابي أنا، لا في ثيابها، كما زعمت) يجب أن تصب عليها زيتاً بين الحين والحين ليستمر اشتعالها... وعندما أدركت أنني أتألم في ذلك كله، فرحت وبالغت في صب الزيت.

هذا ما قرأته في ورقة بين أوراقها التي جاءت بها يوماً إلى بيتي في عين فجار، بعد ذلك بسنتين: «كنت أعرف كل شيء، ويحسب أنني لا أعرف. وبحسبانه أنني لا أعرف، كان ألمه في ازدياد. وأرى ذلك، وأبقى صامتة أجابهه بوجه من حجر. أو من ورق، لأنه كان وجهاً يتمزّق بسهولة عندما أكون وحدي. حتى الضحكة التي ينشدها مني، أضنّ بها عليه، عن قصد. أعرف أنه يحب ضحكتي، فاتمنّع بها عليه، وأتلذذ بأن أقدم له وجهاً بارداً، حيادياً، كأنني لا أعرف... إلى أن ما عدت أنا أتحمل. وتمزقت.»

وعندما «تمزّقت» نجوى، كان تمزّقها بروقاً وعواصف وأمطاراً هادرة. وإذا هي كالشمس، التهب بها، وانتفض حيّاً ضاجّاً في أرض كلها موت، تريد الآن أن تتفجر تحت قدمّي بالخضرة والينابيع.

[٢٢]

كثيراً ما أحس بندم حقيقي لأني تأخرت، لأني لم أعرف نجوى قبل ذلك الوقت. ضحكتها الصغيرة التي تكشف عن أسنان كبيرة بعض الشيء، لكن شديدة القوة والبياض، والمسافة الصغيرة الرائعة التي تباعد قليلاً بين السنين الأماميين، ثم عيناها اللتان لم استطع أن أميز أبداً لونهما، واللتان لا تتوقفان لحظة واحدة عن احتضاني بلذة جارحة فأغيب فيها، أسافر، أبحر، ثم في خفقة أستعاد تماماً، أصبح بقرب نجوى، ذلك المخلوق المليء بالعنفوان والصخب واللعنة.. وبعض الأحيان بالصمت. أبحث في كل جزء منها عن اللذة والتعشق والانصهار، أجد ذلك في الابتسامة، في رفة العين، وفي ذلك الاقتراب الكاوي الذي يصرخ بحدة تزيد لحظة بعد أخرى، إلى أن يصبح احتراقاً كاملاً.

نجوى ليست مجرد امرأة، ليست فقط تلك الابتسامة التي تذيب العظام. إنها لا تبقي الانسان عاقلاً إذا نظر إلى عينيها. لشدّ ما أتذكر تينك العينين! أريد أن أتذكر بحدة، أريد أن استعيد لون العينين، طريقتهما في الرف، طريقتهما في النداء. أنجح في بعض اللحظات، أنجح حين أغمض عيني. أتذكر اللحظة ثم تهرب مني، وتغيب. نجوى مرض يصيب الروح. منذ اللحظة الأولى، منذ المرة الأولى، تركت في القلب شيئاً أقرب إلى السرّ. لم تقل كل ما تريد، قالت بعض الأشياء بطريقة معينة، خفية ومحرضة إلى درجة لا يمكن أن تنسى. لا زلت اتذكر رائحة الجو، والكلمات. كنا في السيارة ومرة أخرى على مائدة الطعام. ومرة ثالثة أمام بائع التبغ. وفي كل نظرة شيء ما يستغيث، يهرب، يطير، وبعض الأحيان يهبط كأنه الغيمة الثقيلة. أحب أن استعيد تلك اللحظات المليئة بالتوقع. كانت دائماً تقول كلمة، تفعل شيئاً، يحرّك الدم، يغير مسربه. كانت تفعل ذلك بطريقة بسيطة، عادية، وكأنها لا تفعل شيئاً. في مرات كثيرة كانت تصمت، تنظر إليّ، تبتسم. لكن بين الشفاه، في رفة العيون،

أشياء كثيرة. كنت استثار، أشعر بالارتباك، وأحياناً بالعصبية، لكن نجوى تعرف كيف تتصرف.. وكانت تفعل ذلك في الوقت المناسب.

في المرات الأولى، وكنا لا نزال يختبر كلانا الآخر بطريقة أقرب إلى الأطفال، قالت بطريقة مباشرة:

- علاء، اسمع ما سأقوله لك، ولا تغضب!

وحين ابتسمت وأكدت لها أني لن أغضب مهما قالت، هزّت رأسها بطريقة ساخرة، وصمتت لفترة، بدت لي طويلة، ثم تطلعت إلى عيني تماماً وسألت:

- هل أنت متأكد أنك لن تغضب مما سأقول؟

هززت رأسي عدة مرات مؤكداً لها أنني لن أغضب. تساءلت بمكر:

- وإذا غضبت؟

صرخت بنفاد صبر:

- قلت لك لن أغضب!

- اسمع اذن...

لا أتذكر كل ما قالته، لكن كلمات معينة ظلت ترن في رأسي مثل أجراس عيد الميلاد. قالت، أو ما أتذكر أنها قالته: «هناك فرق، فرق كبير بين الروائي والانسان العادي. الروائي فنان، رجل حالم، مليء بالرغبات، يريد أن يهدم العالم، ويبني عالماً جديداً، عالماً خاصاً، قد لا يعني الآخرين. ولذلك أنا أخاف كثيراً من هؤلاء الفنانين، وأخاف عليهم في الوقت نفسه... إنهم يكثرون من الأحلام إلى أن يعيشوا فيها. والعالم الذي يهدمونه، لكي يبنوه من جديد، قائم في أحلامهم فقط. وحتى أصغر الأشياء وأقلها اهمية إذا كانت قائمة ملموسة أمامهم، لا يعرفون كيف يعالجونها، كيف يتصرفون إزاءها. أقول ذلك لكي أؤكد لك حقيقة أساسية: هؤلاء الفنانون، بما فيهم الذين يكتبون الرواية، ينظرون مثلاً إلى المرأة، وكأنها جاءت من عالم آخر لا صلة له بالواقع. المرأة التي تكون

أمامهم لا يرونها. إنهم يرون شيئاً غيرها، طيفاً يتحرك في حلم. أتصورهم دائماً إما فريسة الخيبة، أو فريسة الوهم والجنون. ولذلك قد يكتب الروائي أشياء كثيرة عن الحب، لكنه لا يعرف كيف يتصرف تجاه المرأة التي يحبها فعلاً، والتي يتلذذ بحبها. فكيف الحال اذن بالأمور الأساسية الأخرى في حياتنا؟ كيف يتصرف إزاء الظلم، إزاء القهر، إزاء القسوة والقتل؟»

هذا ما أتصور أنها قالته، ولكنني أجزم أنها قالت أشياء أشد إيلاماً، وأكثر دقة. وأقف حائراً إزاءها. أتذكر في إحدى المرات، بعد مناقشة عاصفة مع نجوى، أني حاولت اقناع نفسي بمراجعة ما قالته، ان أستعيد المناقشة، ثم المعركة التي وقعت بيننا. قلت لنفسي بحدة: عليّ أن أتحول إلى شخص محايد، مراقب، وعليّ أن استعيد ما دار كما لو أنه يعني انساناً آخر، انساناً من هؤلاء البشر الذين أخلقهم، لعلي اكتشف نقاط القوة والضعف في موقف الأخرين. أتذكر اني كنت اذهب بعيداً في استعادة ما حدث: الكلمات، طريقة قولها، التصرفات، وحتى الابتسامات ورفة الأهداب، وما أكاد أضع مسافة بيني وبين ما حصل، حتى ترتج الصورة أمامي. تبرز صورة أو ابتسامة تجعلني انسى الحياد والموضوعية، وأتحول فجأة إلى مخلوق آخر.

لم أنجح مرة واحدة في استعادة كل ما حدث. لا يمكن أن يكون الانسان محايداً تجاه امرأة كنجوى. إنها تفرض حرباً من نوع أو آخر. وحتى اللحظات التي كانت تمتلىء بالابتسامات والدفء، كانت تبدو لي طاغية إلى درجة التدمير.

«علاء.. لماذا جعلت سلوى... تنتحر في روايتك الأولى؟»

ولا تتركني لكي أجيب. كانت تمتلىء فجأة بنوع من الغيظ وتضيف بحدة:

- هل المخلوقات البشرية بالنسبة للروائي مجرد دمى يحركها ويرسم لها المصائر كما يشاء؟

وحين أحاول جاداً استعادة وقائع معينة، لكي أربط الأحداث،

وأفسر لها انتحار سلوى، أحس أنها سافرت بعيداً. الاحظ ذلك من الابتسامات الصغيرة، من النظرات السارحة، وأسقط في حالة من التخبط، أقول لنفسي بحدة، وكأني أسمع مخلوقاً يكمن في داخلي كالحارس: «أيها الأحمق.. توقف!» وفجأة أصاب بحالة من الانتكاس. أصبح رجلاً صعباً، أغرق في كآبة قاتمة. وحينذاك تبذل نجوى كل جهدها، وحلاوتها، لكي تخرجني من الكآبة. تنجح أحياناً، وتفشل أحياناً أخرى. لكن لشد ما كان يضايقني أن أشعر أن في كلامها انتقاصاً من قدرتي الروائية. أما هي، فتعتبر أن ما تقوله هو مجرد نقد موضوعي لطريقتي في كتابة الرواية!

ذات مرة، وكنا لا نزال في البداية، قالت لي بطريقة استفزازية أقرب إلى الطريقة المسرحية:

- علاء! هل تريد أن تعيش أم أن تمثل؟

وحين أكدت لها بكلمات مرتبكة، أني أفضل أن أقتل نفسي على أن أمثل دوراً كتبه آخرون، وأن حياة الفنان، أي الطريقة التي يحيا بها، هي الأساس، قالت ساخرة:

- اذن يجب عليك أن تكف عن هذه الطريقة في النظر إلى الأشخاص والأحداث.

وحين حاولت معها أن اكتشف العيب، لكي أتوصل إلى الطريقة المناسبة، قالت وهي تضحك بصوت عال، مستفز:

- الطريقة الصحيحة في الكتابة هي أن يكتب الانسان، وفي عينيه نظرة مستقيمة نافذة. أن يكتب عما يحس أنه السر، أنه الحقيقة الضائعة، عما يحس أنه يصل ما بين ذاته المركزية، والأفق المحيط به كالدائرة.

ماذا يعني كلامها وكيف يمكن ترجمته؟ ومن أين تأتيني بهذه «الحِكَم» التي لا تنسجم كثيراً وشفتيها الهوجاوين؟

لم نصل إلى نتيجة. النتيجة الوحيدة التي وصلنا إليها هي أن نجوى تريدني أن أجرّب طريقة أخرى في الكتابة، لأن الطريقة التي أحبها

وأكتب بها لا تفي الحاجة، ولا تروق لها. ولو أنها تنكر ذلك أحياناً انكاراً غير مقنع. وهذه النتيجة أثارت في نفسي تساؤلات لا نهاية لها. إذن لماذا تحبني هذه المرأة؟ ماذا تحب فيَّ وماذا تكره؟ والحب والكراهية، أليس لهما علاقة بكوني كاتباً؟ أليس ذلك ما أجتذبها إليّ منذ أول يوم؟ أحار في الأسئلة، في الأفكار، وأحار، أكثر من ذلك، في أن قضية غامضة، تتجاوز الأفكار والكتابة، ولا نستطيع أن نصل فيها إلى نتيجة، هي التي تجمعنا. أو بالأحرى، ربما كانت هذه القضية الغامضة الشديدة التعقيد، هي التي تجمعنا دون غيرها.

ليس من السهل أن يحلل الانسان أفكاره ورغباته. ولكن قبل هذا، أليست المشكلة بحد ذاتها وهماً من الأوهام؟ أليس كونها وهماً أمراً وارداً جداً؟ قد يبدو أن في كلامي ذلك المكر الذي يروق للفنانين والمتبطلين، ومع ذلك فإن فيه عنصراً يساعد على الاكتشاف المستمر، ومحاولة الوصول.

الوصول؟ الوصول إلى ماذا؟ إلى أي شاطىء أمان؟ للمشكلة وجه آخر، ما من ريب. نعم هناك مشكلة حقيقية. ولربما كان لها أكثر من وجه.

قلت وأنا في أول تخبطي، إن المشكلة ببساطة متناهية تتلخص ببضع كلمات: كل رجل بحاجة إلى امرأة. لا يهم أن تكون هذه المرأة زوجة أو عشيقة. كثيرون يفضلون العشيقات - خاصة في سن معينة. وكثيرون يفضلون أن يغيروا عشيقاتهم أو أن يحتفظوا بعدد منهن. في وقت ما، ولأسباب تختلف باختلاف الأشخاص، وبتقدم العمر، تبدأ المسألة باتخاذ شكل آخر. تكون الزوجة، ثم يكون البيت، ويكون الأطفال... وأخيراً تكون الغفوة النهائية. هكذا تكون الدورة في معظم الأحيان.

المرأة لا تختلف عن الرجل في الحاجة وطريقة اشباع هذه الحاجة، وإن كانت تفضل، في الغالب، ان تصطاد رجلاً في وقت مبكر، لأن خوفها من المستقبل والشيخوخة يدفعها باستمرار لأن تحتاط، لأن تستعد لتقديم بعض التنازلات.

أما الحب فشيء وهمي. وهو يعني الصغار، الحالمين، وأولئك الذين لا يجدون شيئاً أفضل يفعلونه في أيامهم الطويلة.

توصلت مبكراً إلى هذه القناعة. أيام المراهقة، بعد عدة تجارب معذبة وفاشلة، قاسيت خلالها الواناً من المهانة النفسية وأضعت أوقاتاً لا حصر لها. وانتظرت في الصباحات الباكرة وأوقات الغروب، وسهرت وتأوهت وبكيت. . . وانتهت كل أحلامي إلى لا شيء. . . نتيجة هذه المعاناة قررت بيني وبين نفسي أن أعبر بسرعة فترة المراهقة، وأن أصبح رجلاً عملياً (في هذا الجانب بالذات كنت امتثل لا شعورياً لآراء صفاء، ولا شك)، وأصبح أكثر حزماً وواقعية، فاتخلى عن هذه التجربة غير المجدية واسقط نهائياً من قاموسي فكرة أن أحب امرأة. كانت المرأة بالنسبة لـي جسداً طرياً حارقاً. وكانت تلك الساعات الحافلة بالشهوة والغرق، إذا انتهت، انتهى كل شيء حتى اشعار آخر، حتى يوم آخر. فاذا حان ذلك اليوم بدأت العودة مرة أخرى إلى ذلك التلمس العصبي، باليدين والشفتين والساقين، ثم بالجسد كله، ومحاولة جامحة للدخول الكامل في الجسد الآخر، والذوبان فيه، وبنفس النغم الحاد المتصاعد. حتى إذا خفت اللهاث تدريجياً، وارتخت الأيدي، وفاحت تلك الرائحة، بدأت الحركة الخفية: التراجع. ثم الانتهاء.

هكذا كانت تتكرر اللعبة مرة بعد أخرى، ونتيجة الشعور باللذة والامتلاء، ولو مؤقتاً، ولما كنت اشتهي بجسدي كله وأحس بالشهوات المقابلة وهي تزحم طريقي، لم أشأ في يوم من الأيام أن أرتبط بامرأة بالذات. أو انني لم أجعل نفسي أسير امرأة. كنت شديد الرغبة في الانتقال والتغيير. وهذا التصرف الذي بدا لكثيرين حافلاً باللذة والامتياز كان يثير في نفسي التساؤل ثم الحيرة: لماذا أنا هكذا تجاه المرأة؟ لماذا اشتعل حتى الاحتراق لكي أصل، فإذا وصلت، إذا شبعت وارتويت، شعرت بنوع من الضيق لا يمكن تبديده إلا بالابتعاد والهرب؟ لقد اثارني هذا الأمر، وفي كل المرات التي حاولت أن أفسر هذا السلوك، أو أن أفهم واقعه الحقيقي لم أصل إلى نتيجة مرضية.

ظللت هكذا وقتاً طويلاً. أنا لا أريد أن أبالغ، فأدعي أني لم التق امرأة واحدة مرتين، لكن النقطة الأساسية هي أن أية امرأة جديدة، مهما كانت المقاييس التي تتصف بها، تبدو لي أكثر جمالاً وشهية من أية امرأة سابقة. في داخلي شيء يستعصي عليّ. يحيرّني. وأكاد أخاف منه. لذلك لم تكن فكرة الارتباط بامرأة معينة واردة بالنسبة إلي، منذ ذلك الوقت البعيد، ذلك الوقت الذي سقطت فيه دمعتان من عيني نائلة، ولم استطع أن أفسر تلك الدمعتين، هل هما دمعتا حزن أم فرح؟ هل هما دمعتان لي أم عليّ؟

هل كنت سعيداً وأنا انتقل بين النساء؟ وهل كنت محظوظاً إلى الدرجة التي يتوهمها بعض الذين عرفوني في تلك الفترات؟ أكاد أقول العكس. كنت شقياً بمعنى ما. كنت أبحث وأحاول، وكانت تشغلني أفكار وهموم، وفي خضم البحث والمحاولة، وتحت وطأة الهموم التي كانت تزداد وتتكاثف كل يوم، ولا سيما بعد أن تخطيت الثلاثين، كنت اتصرف بتلك الطريقة الغامضة والحادة. لست آسفاً، ولا أشعر بتأنيب الضمير. وإذا كنت أعرض هذه الحالة الآن، فما ذلك إلا لأنني أريد أن أفهم لماذا كنت هكذا، ثم لماذا تغيرت بهذا المقدار.

قبل نجوى لم تكن الأرض خراباً، كما لم أكن شقياً إلى درجة تثير الأسى. كنت انساناً آخر. غير أن زمناً جاء كشف، رغماً عني، عن خوافي نفسي التي باتت تتراكم في داخلي تراكم السم في الدم. ولم يسعفني موقف، ولا كتابة. ومرضت ذلك المرض الذي لم يفهمه طبيب. وفجأة صحوت، أو غبت عن الوعي، لست أدري. كيف غدت الصحوة والغيبوبة عندي متبادلتين؟

قبل نجوى، وقبل مرضي بسنين، في تلك الأيام البعيدة، كنت أنزل القمر والنجوم كل ليلة لكي أعيد صياغتها وترتيبها، وقبل أن يأتي الفجر كنت أقذفها ضياء مرة أخرى إلى السماء، وأغفو. وفي تلك الغفوات القصيرة القليلة كان يتشكل لي العالم من جديد، فيبدو شديد الخضرة مليئاً بالدفء، أرى الناس يندفعون إلى العمل بهمة وقد امتلأت وجوههم

بالابتسامات. فإذا رأوا شرطياً أو سوراً وقفوا يتأملون هذا الارث الذي انحدر إليهم، وكأنه جزء من حياتهم، ثم انتهى. .

في تلك الأيام البعيدة كانت مبادىء حياتي، رغم مصاعبها، تتلخص بأشياء بسيطة: العالم الذي نعيش فيه شديد القسوة والدمامة والظلم، وهذه الأمور يجب أن تنتهي لتقوم على أنقاضها معالم حياة جديدة. أعرف أني بتلخيص تلك المبادىء على هذه الطريقة أجعلها ربما أقرب إلى البلاهة، لكن، ولكي أكون صادقاً، عليّ أن اعترف: لم تكن أحلامي تتجاوز القضايا الأساسية المشروعة التي يجب أن يتحلّى بها كل مخلوق بشريّ. وكنت أصر على تبسيطها لأني أراها نقية وضرورية كالماء والشمس والهواء. . . إن الأشياء البسيطة والضرورية معاً هي تلك التي تعيش معنا في كل لحظة، ولا نكاد نحس بها. ومع ذلك فهي أيضاً الأشياء التي نُهدد دوماً بالحرمان منها، بل نحرم منها على أيدي أناس لا يريدون الماء والشمس والهواء إلا لأنفسهم. لن أخوض في تفاصيل الأفكار والأحلام التي ملأت رأسي تلك الأيام. لو حاولت ذلك لأنفجرت أسىً. . ثم غيظاً. وما زلت لا أصدق أن تلك الأفكار والأحلام يمكن أن تدمَّر وتداس، كما حصل في وقت لاحق.

خرجت من تلك التجربة مجروحاً بائساً، وتحطمتْ تحت ناظريّ القداسات المزيفة والطهارات الظاهرية المصطنعة، ومات الصدق مختنقاً تحت رزم النقود، وتحول الديوك الفحول إلى خصيان. بدأت الكراسي، الحفلات، السفر، السفارات، وتلك «الامتيازات» التي كنا نأبى أن ننظر إليها أو نقترب منها غدت أحلاماً تراود الكثيرين. ثم جاءت بعد ذلك أمور كثيرة: السلطة، القوة، النفوذ، العقارات، لتقيم أهرامات ضخمة جديدة بدل تلك الاهرامات الشفافة التي طالما حلمنا بها وبنيناها في معاركنا وأقبيتنا وسجوننا. ربما أكون مغفلاً لا أدرك الأمور على حقيقتها، وقد تكون روح الفنان المحب للجمال داخلي أقوى من روح الثائر على القبح، وقد أكون كما وصفت نجوى الفنان: بارعاً في رؤية الحلم ولكن أعمى في رؤية الواقع. المهم. . ما كادت بضع سنوات تمضي، بعد تلك

المعارك والتوقيفات والانتظارات حتى وجدت نفسي في عالم آخر: عالمي الماضي ينهار، علاقاتي تتمزق، أحلامي تنتهي، واستيقظ على دويّ مدافع الدبابات وصرخات الذين علقوا على المشانق. وبدل أن تنتهي القسوة والدمامة والظلم، يشاد للقسوة صروح جديدة، تشمخ لها رموز جديدة. وبدل الظلم الصغير الذي كان، والذي أحس بمدى ضآلته الآن، جعلت اصطدم في كل خطوة بعشرات الفراعنة الصغار. . . أما الدمامة فقد أصبحت الميزة الوحيدة التي تملأ الدنيا.

وفي تلك الفترة بالذات جاءت نجوى. هل جاءت بالصدفة؟ هل أرسلها القدر، أو بعث بها ذلك الجد، حمدي سويلم، الذي لا يتوقف لحظة واحدة عن اعادة تشكيل العالم حتى من قبره في المطلة؟ هل أرسلها احد؟ أو لم أرها من قبل؟

احياناً أراني لا أصدّق ان انساناً واحداً، علاء بن نجيب سلوم، قد تغيّر بهذا المقدار، وأنه رأى وعاش، تلمّس بيديه الاثنتين وتحمل كل هذا الذي جرى، وأنه غيّر قناعاته إلى هذه الدرجة.

أفضل ميزّة يتمتع بها الانسان هي قدرته على النسيان، وهذا ما سوف أحاول اتقانه بعد الآن. ولكنني أعرف أنني لن أفلح. أمور كثيرة تسكنني - تتصل بنجوى، أو لا تتصل. وإذا كان السوالمة قد تركوا أثراً يرفض الجمود والموت في خلايا جسدي، فهناك أيضاً آخرون. خالي، مثلاً، حسام الرعد. . . كيف لي أن أنساه ما دمت انساناً صنعه الله كتلة من عشق وحزن وغضب؟

[٢٣]

لعلني كنت في العاشرة، أو أكثر بقليل، عندما بدأت أترقب وانتظر كل يوم جمعة ـ إنه اليوم الذي فيه يتردد علينا خالي حسام الرعد. طويل، وسيم، في أوائل الثلاثينات من عمره، لا تتسع الدنيا لمرحه. يجيئنا في سيارة «سبورت» قديمة يوقفها عند البوابة، ويزمّر، فننزل إليه راكضين، ويأخذنا أنا وصفاء في سيارته المكشوفة ويتجوّل بنا في شوارع المدينة. أو يأتينا راكباً حصاناً، فأراه أميراً قادماً من عالم القصص التي جعلت أقرأها، ويدعوني أنا بالذات ويركبني أمامه على الحصان، وأمي تعترض خوفاً علي، وخالي يقول: «اسمع يا علاء، إذا لم تكن فارساً، فأنت لست شيئاً. عالم بلا فروسية لا يساوي فلساً أحمر. اتفهم؟»

وفي العطلة الصيفية من إحدى السنين جعل يمر بنا مبكراً من كل صباح بسيارته، ويأخذني إلى اسطبلات الخيل في حي العمادية، حيث كانت له عدة خيول عربية يعيش بها ومن أجلها. وعلمني ركوب الخيل حتى صرت، بعد بضعة أشهر أرافقه، كل منا على حصانه، في ظاهر عمورية، في خبب، ثم في حُضْر أشبه بالطراد، فامتلىء فرحاً، ولو أنني أعود بعد ذلك منهوك القوى متألماً في الإليتين، فتعلن أمي غضبتها مجدداً على أخيها الذي تتمنى لو أنه يتزوج وينجب ابناً يعلمه ركوب الخيل، ويكف شرّه عن أولادها! فيقول أبي مازحاً: «حسام تزوج الخيل...» ويقول حسام، وهو يقتاد باللجام مهرته الشقراء المحببة لمعة إلى خارج الأسطبل، «بشرفك أبو صفاء، هل في الدنيا امرأة في جمالها؟» وتتهادى لمعة إلى جانبه، وغرتها البيضاء تعابث الريح، وتصهل صهلة يطرب لها أكثر من صوت ألف غانيه. فيخبط بكفيه عنقها الطويل ويمسّده برفق، كعاشق.

وما زلت أذكر يوم أنزل لمعة إلى حلبة السباق لأول مرة ـ كان ذلك على أثر خروجي من التوقيف، قبيل ذهابي إلى انكلترا للدراسة ـ وكان

يركبها جوكي بحجم الفأر، ولكن كبرياءه بحجم الجبل. كنت بين آلاف المتفرجين والمراهنين مع خالي، وأخي الأصغر أدهم الذي صار ينافسني في حبه واهتمامه. وقد جعلنا حسام نراهن، ولو بمبلغ متواضع، على «لمعة حسام» ليزيد من إثارتنا وتوترنا، وهو يتوسط عدداً من أصحاب الخيل ولا ينقطع عن الكلام والضحك، مطمئناً إلى فوز فرسه. وبدأ الشوط والجمهور صامت متحفز، ثم جاءت الهمهمة، ونحن كل بمنظاره نراقب لمعة، رقم ٤، بين خمسة عشر حصاناً، وارتفعت الأصوات فجأة عندما نفذت لمعة عند منعطف الحلبة البعيد من بين الخيول الأخرى وتقدمتها، ثم علا الضجيج وتلاه الصراخ، وقلبي يضرب في صدري كالمطرقة، وأخذت أنا أيضاً أصيح «لمعة! لمعة!» وقد انطلقت لمعة كالرصاصة، وأقرب حصان لها يتأخر عنها مسافة أمتار ـ وفازت! عدنا إلى البيت وفي جيب كل منا عشرات الدنانير. أما حسام فقد عاد بثلاثة أو أربعة آلاف دينار، لينفقها كلها بعد ذلك بأيام ـ كعادته. فهو لا يوفر شيئاً مما يكسب، ولو فلساً واحداً.

بدأت أدرك لماذا يتحلق حوله دائماً ذلك العدد الكبير من العابثين والماجنين. الذين لا أسماء لهم في ذاكرتي، ولا وجود. وهل يتزوج حسام الرعد وأجمل راقصات عمورية، القادمات من مرابع بيروت والقاهرة وبغداد، يحيين له ولصحبه الليالي الصاخبة في داره، وبالجملة، ويعزف لهن على العود بنفسه، ويتلقف الطفيليون الدنانير المتساقطة من يديه في كل اتجاه؟ وفيما كنت أنا في غمرة حماساتي الرومانسية وغرامياتي الصغيرة اللاهثة، لحظت أنه في الواقع يحتقر النساء. وكلما اقترحت أمي عليه اسم امرأة من أطراف أسرتنا، أو من معارفنا الكثار، هز كتفيه استخفافاً، وردد: «صنت، نفسي عما يدنّس نفسي...» فتقول أمي: «عدنا للشعر والكلام الفارغ؟ أريد منك أن تكون جاداً ولو مرة واحدة!»

كان خالي حسام قد ذهب للدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت، ولم أعرف بالضبط ما الذي درس، لأنه كان يؤثر الحديث، لا عن حياته الأكاديمية، بل عن نشاطاته في «العروة الوثقى» وعلاقاته السياسية

والاجتماعية، وأسفاره بين بيروت وبغداد والقدس. ما الذي كان يهمه في الحياة فيما عدا الخيل؟ لم أعرف بالضبط. كان يتكلم الانكليزية بطلاقة، ويقتني كتباً كثيرة، انتشرت رفوفها في كل غرفة من غرف منزله. غير أن حبه للشعر بشكل خاص كان ظاهراً في رصفه ثلاثة رفوف كبيرة بدواوين شعراء العرب القدامى، وبعض المحدثين. وليلة اجتمع أفراد الأسرة في بيتنا ليودعوني، اذ كنت سأستقل الطائرة إلى لندن في الصباح التالي، جاءنا في ساعة متأخرة، وأهداني نسخة من ديوان البحتري. وقال «تعلم أية لغة تشاء في الدنيا. ولكن اقرأ كل يوم ثلاثة أبيات من هذا الديوان، فلا أخاف عليك». وما كدت آخذ الكتاب بين يدي حتى انفتح تلقائياً على:

صنتُ نفسي عما يدنّس نفسي
وترفّعت عن جَدا كل جِبْسِ
وتماسكتُ حيث زعزعني الدهرُ
التماساً منه لتعسي ونَكْسي
وكأنّ الزمانَ أصبح محمولاً
هواه مع الأخسِّ الأخسِّ...

لم يكن قد مر وقت طويل على خروجي من التوقيف، فشعرت أن هذه الأبيات تحمل لي المعاني التي تنسجم مع إرادتي، تلك المعاني التي كان خالي أيضاً ربما يراها فيها. ولم أدرك إلا بعد ذلك بسنين المغزى الحقيقي الذي كان يروق له أن يستخرج منها.

عندما رفعت رأسي عن الكتاب، سمعت العمة نصرت تقول بلهجة صارمة: «حسام، لا تحاول المستحيل. علاء ليس من حصتك في هذه العائلة. ربما أدهم...»

فأجابها ضاحكاً: «ثلثا الولد على خاله، يا ستي...»

ـ «بالنسبة إلى أدهم، ربما... والثلث الآخر فيه سويلمي، سويلمي جداً... أما علاء ـ» وهزت رأسها بالنفي، وعيناها تحدقان فيه، ولا تريانه.

وكالعادة، كانت عمتي على شيء من الصواب. على الأقل من حيث الشاعرية التي كانت الصفة المميزة لخالي ـ وفروسيته ولا أباليته انما هما بعض تلك الشاعرية ـ والتي جعلت تتبدّى في أخي أدهم. وقد تكاملت في أثناء غيابي في انكلترا، إذ جعل أدهم يكتب إليّ رسائل ملأى بقصائده ـ وبما يستطيع أن يوصله إليّ عبر البريد المراقب من أخباره، وأخبار خالي وخيوله وبعض الأصدقاء. وأدهشني حين أخبرني ذات مرة أنه قضى أمسية رائعة مع حسام الرعد الذي راح يعزف لساعات انغاماً مرتجلة على العود، قائلاً إنها من وحي قصائد أدهم!

حسام الرعد! أي اسم رائع على أي مسمى رائع! اذكره اليوم، فأريد البكاء. «وتماسكتُ حيث زعزعني الدهر...» كان يعلم منذ اليوم الأول أن الدهر سوف يزعزعه، ولن يستطيع التماسك، والزمان محمول هواه مع الأخسّ الأخس.

ست سنوات غبت فيها عن عمورية، وعمورية لم تغب عني لحظة واحدة. لم يشجعني أبي قط على العودة أيام العُطَل الصيفية إلا مرة واحدة. كان يتقصد أن يرسل إليّ مبالغ اضافية ويحثني على الاستفادة منها في السفر في أقطار أوروبية: وأنا لم أنجح أصلاً في دراسة الهندسة الميكانيكية، وتحولت لاحقاً إلى دراسة تاريخ الفن، ولا بد لي في أثناء العطل من مشاهدة المتاحف والمعارض في العواصم الأوروبية كلها إن استطعت...

ويوم عدت بعد غيابي الطويل إلى عمورية، أو في اليوم التالي لعودتي على وجه الدقة، رحت أزور أخي أدهم ـ في السجن... كان قد حكم عليه، مع مجموعة من رفاقه الطلبة، إثر تهمة سياسية، بالسجن ستة أشهر. والرجل الوحيد الذي صحبني في الزيارة كان خالي حسام ـ مع أمي.

كان شَعْر خالي قد أبيضّ كله بشكل مذهل. غير أن وجهه بقي على نضارته وشبابه. بقيت ضحكته عالية، ولم يخبُ التوقد في عينيه. ولحظت ما بينه وبين أدهم من تفاهم خفي: كلاهما مرح، ضاحك. حتى في السجن لم يبد على أي منهما أنه يكترث لشيء. أما أنا فلم أعرف ماذا أقول لأخي بعد ذلك الغياب الطويل، وأنا اتمزق بين الغضب والقرف لما أرى.

كان عزائي الوحيد أن أدهم قد أضحى شاباً يملأ العين، لا يُخفي ضحكةُ العصبي صلابةً تلتمع بين الحين والآخر كحد النصل في نظرته حين يتقطب حاجباه فجأة، وتنطبق شفتاه بقوة غريبة.

اكتشفت أن خالي لم يبق له من الخيل ما كان لديه من قبل. وأخبرتني أمي أنه اضطر في العام الأسبق إلى بيع مزرعته الصغيرة. وعندما باغتُه بزيارة، عصر أحد الأيام، فتح لي الباب بنفسه وفي يده عوده الجديد، الذي صنعه له عوّاد مشهور في دمشق، وهتف: «علاء! جئت في الوقت المناسب! تعال اسمع.» وأخذني إلى غرفة الجلوس، وأجلسني قبالته، واحتضن العود، ودوزنه قليلاً، ثم جعل يعزف، وشعره الأبيض في هالة هوجاء حول رأسه المنحني على الأوتار. لست أدري هل أحس بوجودي أمامه، وهو فيما يشبه الغيبوبة يستخرج من تلك الآلة الرقيقة، التي كنت أتصور أنها لم تصنع إلا للطرب، فوضى رائعة من الأنغام، يتمازج فيها العنف والألم على نحو لم أكن أتوقعه من حسام الرعد. خُيّل إليّ أنها أنغام لا تخضع لقاعدة موسيقية، ولكنه يتحكم بها، كأنه يستنطق الأوتار لغةً تدهش لها هي نفسها. وأدركت ساعتئذ لماذا أصر على نشر قصائد أدهم على نفقته. . .

فجأة، توقف، ورفع رأسه، وقال مشيراً إلى مائدة جانبية عليها زجاجات وكؤوس: «صب لك كأساً. . . وكأساً لي.»

نهضت، وقلت: «ويسكي، أم عرق؟»

قال وهو يدوزن الأوتار من جديد: «عرق، عرق يا علاء. ولا تكثر الماء.»

ما علاقة هذا كله بنجوى؟ ما علاقة هذه الوقائع بها، وهي تعود إلى قبل معرفتي نجوى بسنين؟ كان من الممكن ألا تكون لها أية علاقة بها. ويا ليت الأمر وقف عند ذلك الحد! لكنت اتمنى لو أن صورة حسام الرعد تلك، تلك دون غيرها، هي التي بقيت مجمدة في ذاكرتي! حسام الرعد وقد احتضن عوده في غرفة ملأى بالكتب، وعلى جانب منه بضع زجاجات

وكؤوس تراكمت فيما بينها قصائد عذبة مرة لابن أخيه أدهم، الذي يرعاه ويشجعه على المضيّ في توزيع همه بين الشعر وبين النشاط السياسي، ولمعة الشقراء تصهل في اسطبلها في انتظار فارسها. . .

كان من أقرب الناس إليه عبد الفتاح أبو العز، صاحب جريدة «الميزان» ـ فبينهما صداقة تعود إلى أواخر الثلاثينات، أيام الدراسة الجامعية. كثيراً ما رأيتهما يختلفان في الرأي حتى المشاجرة، لا سيما إذا أسرفا قليلاً في الشرب، غير أن حرارة الود بينهما لم تخفت قط. هذه الصلة بين الرجلين كانت السبب في تعيين رفيق دراستي في مانشستر، صادق الرمحي، محرراً في جريدة «الميزان» حينما طلبت إلى خالي التوسط في الأمر لدى الأستاذ أبو العز. ولم تخل العملية من شيء من روح التآمر. فقد أردنا صوتاً يمثلنا في جريدة هي أوسع الصحف انتشاراً في عمورية، بل إن صادق ـ حالما توطدت له مكانة في هيئة التحرير، أخذ يطالبني بكتابة المقالات لجريدته ـ إلى جانب عملي محاضراً في أكاديمية الفنون الجميلة. وكان عندئذ أني أثرت كثيراً من القضايا التي طالما تناقشنا فيها أنا وصادق في عهد الدراسة. وكانت المقالات تلقى ترحيباً من صاحب الجريدة (ولعله لم يكن يقرأها أصلاً)، ويتغاضى فيما يبدو عن اعتراضات بعض الساسة الذين، على حد قوله، من شأنهم أن يعترضوا على كل رأي، مهما يكن، «لمجرد أنه لم يخطر ببالهم من قبل».

كم مرة جاءني حسام الرعد طالباً إليّ أن اخرج معه إلى الصيد، فأتعذر بمحاضراتي وكتاباتي. وكان جوابه مرة على ذلك، وشعره الأبيض يضفي مسحة من الحكمة على كلماته: «علاء، أراك تنازلت عن رحاب أرض الله، ورضيت بمغلقات المدينة.»

فقلت: «سأجعل مغلقات المدينة تستوعب رحاب أرض الله ـ في كتاباتي.»

ـ «هاها! حجج الكتّاب! وما الذي ستكتب ولم يكتبه غيرك من قبل؟ وربما بأسلوب لن يحلم به قلمك؟»

ـ «الكثير، الكثير يا خالي.»
ـ «والله إن لم تكتب ما يخشى الآخرون كتابته. .»
ـ «سأحاول»
ـ «وفوق ذلك ترفض الخروج معي إلى الصيد. . . سأرفض الاعتراف بأنني خالك!»

ثم يخبط بكفه على كتفي بحب، ويضيف: «ولكنني لا أخشى عليك. . . أين أدهم؟» وأتأكد مرة أخرى من أنه إنما جاء ليستصحب أخي معه، ليقرأ قصائده، ليطاردا معاً على الخيل، ليطلقا النار في أجواء ذلك الوادي العريض الوعر الواقع بين غسرين والمطلة، والمشهور بالحجل. ولم تكن النار التي يطلقها أدهم بالضرورة دائماً ناراً من بندقية صيد. ويوم اكتشفت أمي رشاشاً خبأه أدهم في دولاب غرفة نومه، وأعلمت أبي بذلك، نزل أبي إلى الغرفة الصغيرة التي كنا أنا وأدهم نختلي فيها لسماع الموسيقى، وكان هو يسجل إحدى قصائده على مسجل اشتريناه قبل أيام، وصاح به أبي: «أدهم! إمّا أنا في هذا البيت، أو رشاشك! أتريد أن تبلينا؟ تخرّب بيتنا؟»

وظهرت وراءه أمي بادية الاضطراب، وتلتها العمة نصرت في فستانها الأسود الجنائزي الطويل وهي ترف بذراعيها كجناحي غراب رهيب وتقول: «على جدك الأول يا أدهم! على جدك الأول!» ثم انسحبت. وصرخ أبي، وأدهم ما زال أمام المسجل والميكرفون في يده: «أخرج من هذا البيت، أنت وسلاحك وجنونك، ولا أريد أن أراك مرة ثانية!»

وبكل برود قال أخي: «أرجوك، بابا، صياحك سجله الميكروفون مع قصيدتي.»

فاندفع أبي إليه، وخطف الميكروفون من يده وانتزعه بشراسة من المسجل، وقذف به في وجهه، وخرج محتدماً، وبعد لحظات سمعنا سيارته

تنطلق من الكراج. ولم يعد إلينا لأيام. وراحت أمي تفرك يديها بؤساً ويأساً، والدمع يملأ عينيها، وتقول: «ذهب إلى الرقاصة العجمية. يريد ذريعة يتحجج بها ليذهب إلى تلك القحبة. . . يا ليتني لم أخبره عن الرشاش.»

وكانت أيامئذ المفاجأة الكبرى: حسام الرعد تزوج! ذهب إلى دمشق لأسبوعين، وعاد ومعه امرأة ممتدة القوام، مستديرة الوجه، كبيرة الردفين، يصعب تحديد سنها، تدعى عصمت الحلواني. وتبين أنها من أقارب زوجة صديقه عبد الفتاح أبو العز، وأن «الطبخة» تمت على يد زوجة عبد الفتاح.

لم يرق الخبر لأمي، بل إنها أحست أن بلية أخرى قد نزلت بها شخصياً. «لم أترك فتاة مستورة من أقاربنا لم اقترحها عليه. . . ويأتينا أخيراً بعد أن شاب وعاب بامرأة غريبة، لا يعرف أحد ما أصلها ولا فصلها. . . والله لن أزورهما ما دمت على وجه الأرض وأتنفس.»

ولكن أمي، القديسة، تنازلت عن موقفها الرافض حين جاء حسام وهو يعرف ضعفها تجاهه، واسترضاها دون مشقة. فلم تزره وزوجته وحسب، بل أقامت للزوجين السعيدين حفلة عشاء في دارنا دعت إليها أقاربنا، وعبد الفتاح أبو العز وأقاربه ـ كما ينبغي. وتألّقت أمي ليلة أو ليلتين عندئذ، لأن أبي كان قد عاد من المرأة الأخرى قبل الحفلة بيومين أو ثلاثة ومكث بيننا ـ بعد أن أكد له أدهم أنه تخلص من الرشاش.

ربما لم يكن زواج خالي بداية انهياره بالضبط ـ ولكنه كان حتماً أحد أعراض ذلك الانهيار، كما كان في الوقت نفسه أحد الأسباب التي سارعت فيه. لم يدم الزواج أكثر من ستة أشهر. فبعد الأيام الأولى للزواج بدأ خالي يثور لأتفه الأسباب وأخذ يتعارك أو يبقى صامتاً، ثم غرق في السكر، وكثيراً ما كان يترك عصمت وحيدة ليلة أو ليلتين، فتلجأ إلينا لتشكو همها، وتقول: «حسام يفضل أن يقضي الليل في الأسطبل مع الخيل على قضائه معي في البيت. ما هذه المصيبة يا رب!»